المجلد الرابع

العبقريات الإسلامية - ٤

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الرابع

العبقريات الإسلامية ٤

يحتوي على

معاوية بن أبي سفيان

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الثالثة
١٩٨٦

عباس محمود
العقاد

معاوية بن أبي سفيان

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تقديرٌ وتسطير

التاريخ عرض الانسانية ..

والعرض مناط الحمد والذم فى الانسان ..

وكذلك التاريخ بالقياس الى الانسانية فى جملتها ، لا يكون شيئا ان لم يكن تقديرا لما هو صادق أو كاذب ، أو ما هو صواب أو خطأ ، وما هو حميد أو ذميم ، من الحوادث والناس

وقد نذكر الحوادث توسعا فى التعبير ، فان الحوادث لا تعنينا لذاتها ان لم يكن معناها تقويما لأعمال وقياما بأعمال ، أو لم يكن معناها فى صيغة أخرى تعريفا بأقدار الناس مما عملوه واستطاعوه ..

وكل شيء فى الحياة الانسانية هين اذا هان الخلل فى موازين الانسانية

وانهـا لأهون من ذلك اذا جاوز الأمر الخلل الى انعكاس الأحكام وانقلابها من النقيض الى النقيض

يهون كل شيء اذا هانت موازين الانسانية ، لأن موازين الانسانية جماع ما عندها من الفكر والخلق والعقيدة والذوق والخيال

ومن هوان الموازين الانسانية أن يختل كل هذا ، فلا يوثق بمحصول الانسانية كافة فى تاريخها القديم والحديث

وأهون من ذلك ألا تختل وكفى .. بل تختل وتنعكس ، فيوضع فيها الذم موضع الحمد ، والكذب موضع الصدق ، والخداع موضع الاخلاص والايمان ..

وقد هان عرض انسان واحد يشتريه المال أو الغرض فى حياته ، فماذا يقال فى عرض الانسانية الذى يشترى فى الحياة وبعد الممات ، ويزيف فيه الواقع للعيان ثم يلازمه الزيف بعد ذلك مدى الأجيـال على صفحات

التاريخ ! ..

ذلك أفدح مصاب تصاب به الانسانية : انه مصاب فى عرضها ، فى صميم أفكارها وأخلاقها وعقائدها وأذواقها وأحلامها . فى موازينها وحسب . وما من شيء يعتز به الانسان لا يدخل فى هذه الموازين

وأوجب واجب على الانسان لضميره أن يحمى نفسه من شر هذا المصاب الفادح ، وألا يتيح لأحد أن يختلس التاريخ فىحاضره ومستقبله . فليس البلاء هنا بلاء منفعة تفوت أو مضرة تحدث ، ولكنه بلاء الزيغ فى البصر والبصيرة ، وعلينا نحن أن نصحح البصر اذا زاغ لأنه نقص وعيب وان لم يحدث منه ضرر عاجل أو آجل . وكذلك نصحح زيغ البصيرة لأنه نقص وعيب ، أو لأنه تشويه فى سواء الخلقة ، وان لم يعجل منه الضرر ولم تذهب به المنفعة ..

ان تاريخ الانسانية من أوائلها الى حواضرها لا يملك للعاملين جزاء غير حسن التقدير وصدق القياس لما عملوه

وكثير على أحد أن يبتذل هذا الجزاء ، لأنه استطاع أن يحشو بعض البطون أو بعض الجيوب ، فيملك — بهذه الرشوة الرخيصة — خير ما تؤتيه الانسانية أحدا من أبنائها فى الحياة وبعد الممات

***

على أن الموازين الانسانية لا تزيفها الرشوة المقصودة دون غيرها ، ولا يختل بها غرض المنتفعين المتواطئين على تبديل الحقيقة ، ذهابا مع الأجر العاجل والعطاء المعروف

بل تصاب هذه الموازين من النهازين أو « الوصوليين » المطبوعين كما تصاب من النهازين المصنوعين أو المصطنعين

فمن الناس من يحب أن تتغلب المنفعة على الفضيلة أو على الحقيقة ، وان لم يكن هو صاحب المنفعة ولا حاضرا لها عند انتفاع المنتفعين بها

من الناس من يحب ذلك لأنه يرجع الى طبيعته فيشعر بحقارتها اذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة والحقائق الصريحة

ومنهم من يحب الناجحين بالمنافع لأنه يتمنى أن ينجح على مثالهم ولا ينكر النجاح اذا جاءه بوسيلة كوسيلتهم

ومنهم من يبلغ بهذه الخصلة حد التعصب والغيرة العمياء ، لأنه يكره أن يدان الناس أو تقاس الأعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه ولايقدر على التماس المعذرة لها فى نقيصتها ، أو فى طبيعتها التى لا فكاك منها

وليس أبغض الى الانسان من احتقاره لنفسه

وليس أحب اليه من اعتذاره لها عن حقارتها

***

وانك لو بحثت جهدك عن عصبية عمياء تغطى على بصر الانسان وتملك عليه هواه ، لم تجد لها علة أقوى من هذه العلة التى ينقاد لها ولا يبتغى الشفاء منها

انه يتعصب فى كل شعور يدفع به النقص ويمهد به العذر وينفى عنه الاضطرار الى الاقرار بسبق السابقين له وارتفاع المرتفعين عليه

وانه ليعترف بالجهل اذا استطاع أن يدعى لنفسه تعلة يسمو بها على أهل المعرفة ..

وانه ليعترف بالعجز اذا استطاع أن ينزل بالقادرين الى « مستواه » بخديعة من خدائع النفوس

وانه ليعترف بالرذيلة اذا استطاع أن يلوث الفضيلة التى يمتاز بها عليه ذوو الفضائل البينة

وانه ليتشبث بهذه التعلات كما يتشبث الغريق بأوهام النجاة ، لأنه بغير هذه التعلات غريق فى شعور ثقيل على جميع النفوس ، وهو الشعور بالهوان ..

لهذا يتعصب النهازون المطبوعون على أصحاب المثل العليا ، لأنهم بين اثنتين : اما أن يدينوا أنفسهم بالمثل العليا ويعملوا فى السر والعلانية عمل أصحابها ، وذلك مطلب عسير يصطدمون بعقباته كل يوم وكل ساعة ..

واما أن ينكروا تلك المثل العليا على أصحابها ، ويتعصبوا لمن ينجح بأساليبهم أو يتمنون النجاح بأساليبه ، وذلك مطلب لا يكلفهم تغيير الطباع وان لم يبلغوه بفعالهم كما بلغه ذوو القدرة أمامهم من الناجحين الفعالين ..

***

وقد عرفنا من هؤلاء أناسا فى التاريخ كما عرفناهم فى الحياة الحاضرة عرفناهم فعرفنا عجبا من العصبية العمياء التى تكيل بالكيلين وتزن بالميزانين فى الحادث الواحد والحقبة الواحدة

اذا وقفوا بين خصمين أحدهما من النفعيين والآخر من المثاليين رأيت العجب فى المقياس الذى يلتمسون به المعاذير لهذا وينكرونها على الآخر فى اللحظة الواحدة ..

اذا استسلم أحدهما مع الهوى لمحاباة ولده أو ذوى قرباه لم يعذلوه أو لم يعنفوه فى عذله ، بل اتخذوا من ذلك شريعة يؤتم بها وتجرى الوتيرة عليها ..

وماذا فى هذا الصنيع عندهم مما يستغرب ؟ أكان على الرجل أن ينسى ابنه ليفضل عليه الغرباء عنه ؟ أليس هذا الصنيع صنيع كل انسان فى هذا المكان ؟ ..

يعذرون هنا بل لا يلومون ، ولا ينفرون ممن يلومونه ان جاملوا « الظواهر » فلاموه

أما خصمه المثالى فمعدود عليه أن يحابى نفسه فضلا عن محاباة ولده ، ومعدود عليه أن يهبط من السماوات العلا لحظة واحدة ليشبه سائر الناس فى نقيصة من النقائص أو أمل من الآمال

ولا حاجة الى امعان فى البحث للكشف عن خبيئة الطبيعة النهازة فى هذه التفرقة بين الحكم على النفعيين والحكم على المثاليين

ان الطبيعة النهازة لا تريد هنا أن تحكم وأن تنصف بين خصمين انها تريد أن تعذر نفسها لتقول ان ذلك المثالى ناقص وان هذا النفعى

يجرى على العرف الشائع بين جميع الناس ، ولهذا يتناول النهاز الميزان وهو يتعمد أن يزيد فى ناحية من السيئات ويحط من الحسنات ، ويتعمد فى النـاحية الأخرى أن يقلب الكفة فيزيد على الحسـنات ويحط من السيئات ..

ويكفى أن ينسب الى العظيم المثالى عمل من الأعمال التى لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى اليها ليشعر النهاز بالاختلاف والجفوة بينه وبين ذلك العظيم المثالى ، ثم يشعر بنوع من القرابة والالفة بينه وبين خصمه ، فيميل الى سماع الاحدوثة الحسنة عن هذا ولا يميل الى سماعها عن ذاك ، ويضطره الى ذلك وقوفه بين طريقين : أحدهما غريب يصغره فى نظر نفسه ، والآخر مألوف يطرقه كل يوم أو يحب أن يطرقه غير ملوم بينه وبين دخيلته ..

***

نعم .. يكفى أن ينسب الى العظيم المثالى عمل من الأعمال التى لايقدر عليها النهاز ولا يسعى اليها لتنفرج الهوة بينهما فلا يستريح النهاز الى العظيم المثالي كما يستريح الى النفعيين الناجحين

ونقول « عمل من الاعمال لا يقدر عليه ولا يسعى اليه » لأن هناك أناسا لا يقدرون على العمل المثالي ولكنهم يسعون اليه أو يتمنونه أو يحبون أن يؤمنوا بسعيهم اليه وتمنيه وصبرهم على مشقة هذا السعي وهذه الأمنية ..

وليس هؤلاء بالنفعيين المطبوعين

هؤلاء مثاليون تعوزهم القدرة ولا يعوزهم الأمل فى بلوغها ولا الغبطة بوجودها ، وميولهم الى جانب العظماء المثاليين أقرب وأغلب من ميولهم الى جانب المنفعة الناجحة بالحيلة أو بكل وسيلة ، والأمثلة من هؤلاء وهؤلاء كثيرة بين سواد الناس الذين لا يدخلون الى ساحة التاريخ الا شهودا أو مستمعين

فلو كانت محنة التاريخ كله من النهّاز المأجور لما خفيت حقائقه هذا الخفاء ، ولا طال العهد على الزيف أو الغرض المموه بالأباطيل

وانما المحنة الشائعة من اولئك النهازين المتطوعين الذين يقبلون العملة الزائفة ويرفضون ما عداها ، ويجاهدون مَن يكشف هذا الزيف ويقوّمه بقيمته الصحيحة ، ثم تكثر العملة الزائفة فى الأيدى حتى ليوشك أن تطرد العملة الصحيحة وتحيطها بالريبة والحذر ، ولا ينفع المحك الناقد فى هذه الحالة لأن المحك الناقد لم يسلم قبلها من التزييف ..

***

وفى التاريخ الاسلامى مراحل كثيرة تصحح لنا موازين التاريخ التى يرتبط بها عرض الانسانية ، وربما كانت هذه المراحل أجدى على المؤرخ من غيرها فى تواريخ الأمم ، لأنها حاضرة الأخبار والروايات ، حاضرة الاسباب والبواعث ، ولا يخفى من شأنها غير النيات والمزاعم . وليس بالمؤرخ من تضلله النيات والمزاعم حين تشخص أمامه الأخبار والروايات ولا تتوارى خلفها الأسباب والبواعث بحجاب كثيف ..

وأسبق هذه المراحل وأضخمها مرحلة النزاع بين علي ومعاوية بعد مقتل عثمان ..

فقد اختلفت فيها الأحكام على الرجال والمناقب والأعمال ولم تنقطع عنا أخبارهم وحوادثهم التي اتفقت عليها جميع الأقوال

واذا لم يرجح من أخبار هذه الفترة الا الخبر الراجح عن لعن « علي » على المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لاثبـات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتي الميزان

فان الذى يعلن لعن خصمه على منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه فى كل مكان وبكل لسان ، ولو لم يرد من أخبار تلك الفترة أن معاوية كان يغدق الأموال على الأعوان ومن يرجى منهم العون لكان لعن خصمه على المنابر كافيا للابانة عما صنعه لكسب الثناء عليه واسكات القادحين فيه ، ولكن أخبار الأموال المبذولة لتغيير الحقائق فى هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين ومن لا يمدحون ولا يقدحون ، ولم يعلم أحد مبلغها من الوفر والجسامة ، ولكنها معلومة بالتقدير وان لم تعلم

بالاحصاء وأرقام الحساب ، لأنها استنفدت خزانة الدولة وجرت الى مضاعفة المكوس والضرائب ومخالفة العهود لأهل الذمة وحسبان الزكاة من حصة الخزانة التى يستولي عليها ولاة الأمور

ويبقى عمل النهازين المطبوعين بعد عمل النهازين المأجورين ، فانهم قد تطوعوا فى ذلك العصر ، وفى العصور التالية ، لترجيح كفة النجاح المنتفع على كفة المثالية العالية ، ولم يخف الأمر على أبناء ذلك العصر كما نشرحه الآن بأساليب علم النفس فى الزمن الأخير . فان الأقدمين لم تفتهم « النفس » بجوهرها وان فاتتهم مصطلحات النفسانيين من أبناء القرن العشرين ، وقد نفذوا الى بواطنها بالنظرة الثابتة لأنهم أصحاب نفوس تعلم ما تنطوي عليه النفوس

جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى عن الامام ابن حنبل انه سأل أباه عن علي ومعاوية فقال : « اعلم ان عليا كان كثير الاعداء ، ففتش له أعداؤه عيبا فلم يجدوا ، فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيادا منهم له »

وهذه دخيلة من دخائل النفس الصغيرة معهودة متكررة فى كل جيل وفى كل خصومة ، فكثير من الثناء لا يصدر عن حب للمثنى عليه كما يصدر عن حقد على غيره ، وكثير من هذا الحقد تبعثه الفضائل ولا تبعثه العيوب ..

***

ان تاريخ معاوية بن أبي سفيان لا يحتاج الى مزيد من تفصيل ، وانما يحتاج تاريخه وتواريخ النابهين جميعا الى تصحيح الموازين وبيان المداخل التى تؤتى من قبلها أحكام الناس على الحوادث والرجال ، فتصاب بالخلل أو تنقلب رأسا على عقب . ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر ونظرة الناظر وادراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمنه وحوادث سائر الأزمنة

ونحن نفهم تاريخ معاوية ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناة الدول اذا صححنا الموازين وعرفنا ما يعرض لها من الانحراف عن قصد أو عن شعور غير مقصود ..

ولكننا لا نعرف تاريخ معاوية ولا تواريخ غيره اذا أخذنا بظواهر الأقوال ولم ننقب وراءها عن بواطن الاهواء والبواعث الخفية ، ولا بد منها في هذه المرحلة بذاتها : مرحلة الدولة الأموية الأولى على التخصيص

لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة حادثا جللا بالغ الخطر في تاريخ الاسلام ، وتاريخ العالم

***

وما كان أحد ليطمع في بقاء عصر الخلافة على سنة الصديق والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين ، لأن اطراد النسق من ولاة الأمر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى أمر تنوء به طاقة بني الانسان

فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقيـــة بمستطاع على طول الزمن ، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذي يؤجل الى زمن بعيد

ولكن الملك بعد الخلافة كان على مفترق طريقين : كان في الوسع أن يسير على مشابه الخلافة ملكا بارا تقيا مصونا من بذخ الهرقلية والكسروية وسائر ضروب الملك في عصوره الخالية

وكان في الوسع أن يسير على مشابه الملك في العصور الخالية بذخا ومتاعا وزينة وخيلاء كخيلاء العواهل من القياصرة والشواهين

كان في الوسع أن يبتدىء الملك في تاريخ العالم على النهج الصديقي أو الفاروقي وان لم يبلغ هذا المدى من النزاهة والصلاح ، وكان هذا النهج خليقا أن يظل اماما للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحميهم نكسة الأخلاق والآداب قرونا وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب المادية ، وما شابهها من آداب تدور على النفع العاجل وتقبل المعاذير منه في أخطر الأمور ..

كان في الوسع هذا ، وكان في الوسع ذاك

ونشأة الدولة الأموية على مفترق هذين الطريقين هي الحادث الجلل في صدر الاسلام ، وهي الحادث الجلل الذى يقرر تبعتها في التــاريخ الاسلامي بل في التاريخ العالمي كله

ورأس الدولة الأموية ، معاوية بن أبى سفيان ، هو صاحب هـذه التبعية التى يجب أن تتقرر بأمانتها العظمى فى ميزان لا تلعب به المنافع المقصودة أو المنافع التى هى أخطر منها على الحقيقة ، وهى منافع الطبائع المستسلمة لأيسر المعاذير ، يشق عليها الصعود الى المثل الأعلى ولو بالأمل وحسن المظنة ، ويطيب لها أن تسترسل على هينة مع مألوفاتها فى كل يوم ..

***

والصفحات التالية تتناول النظر فى سيرة معاوية من هذه الوجهـة ، فليست هى سردا لتاريخه ولا سجلا لأعماله ولا معرضا لحوادث عصره ، ولكنها تقدير له وانصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة الانسانية ــ كما يراها المجتهد فى طلبها وتمحيصها ، ونكاد نقول كما يراها من لا يجتهد فى البعد عنها واخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين دخيلة هواه من حيث يريد أو لا يريد ، وبعض المؤرخين بعد العصر الأموي الى زماننا هـذا يفعلون ذلك حين ينظرون الى هذه الفترة فلا تخطئهم من أسلوبهم ولا من حرصهم على مطاوعة أهوائهم ، كأنهم صنائع الدولة فى ابان سلطانها وبين عطاياها المغدقة ونكاياتها المرهوبة ورجالها الذين تنعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب وأواصر المشايعة فى المطالب والمعاذير

ولولا اننا نأبى أن نضرب الأمثلة بالأسماء لذكرنا من هؤلاء المؤرخين المعاصرين من يتكلم فى هذا التاريخ كلاما ينضح بالغرض ويشف عن المحاباة بغير حجة ، فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأمية فى الجاهلية ، ومنهم من يحسب من همة معاوية انه تصدى للخلافة مع علي ويحسب من المآخذ على غيره انهم تصدوا للخلافة مع يزيد ، ومنهم من يشيد بفضل أبى سفيان على العرب لأنه كان تاجرا يعرف الكتابة والحساب ويعلمهما من يستخدمهم فى تجارته ، ومنهم من يلوم أهل المدينة لأنهم نكبوا فى أرواحهم وأعراضهم على أيدي المسلطين عليهم من جند يزيد ولا تكاد تسمع منه لوما لأولئك المسلطين ، بل تكاد تسمعه يعذرهم

ولا يدري ما يصنعون غير ما صنعوه

ولو اننا ذكرنا أسماء هؤلاء المؤرخين المعاصرين لكان تمام البيان عن منهجهم أن نشفعه بأطراف من تراجمهم وألوان من مسالكهم فى طلب المنفعة واللياذ بالقادرين عليها ، وألوان من معاذيرهم التى يرتضونها لأنفسهم ويوجبون على الناس أن يرتضوها لهم أو يلتمسوها لهم ، وان لم يعلنوها ..

***

ولكننا ندع هذا التمثيل لأننا فى غنى عنه بما ثبت من الأمثلة المحفوظة عن زمانها ، ونتخذ الشواهد من حوادثه وأقوال رجاله ، ونتحرى فى ذلك كله أن نصون التاريخ ــ نصون ذمة الانسانية ــ أن يملكها من يملك الجاه والسلطان فى زمن من الأزمان

بين القدرة والعظمة

زبدة الصفحات التالية أن رأس الدولة الأموية كان رجلا قديرا ولكنه لم يكن بالرجل العظيم

والفرق بين القدرة والعظمة يوضحه الاصطلاح ولا توضحه المعجمات اللغوية هذا التوضيح الذى نعنيه . فقد يقال عن العظيم انه قدير ويقال عن القدير انه عظيم ، ولا يخطىء القائل من الوجهة اللغوية فى هذا الترادف المقبول ما لم يقيده الاصطلاح

انما الاصطلاح الذى نعنيه وننظر فيه الى أحوال الطباع ان القدرة غير العظمة فى أشياء

فربما وصف الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده واحتجان منافعه والاضرار بغيره ، ولكنه اذا وصف بالعظمة فانما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الانسانية العامة ، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه

***

ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح اذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة الى التقدير والتعظيم

فنحن نقدر الانسان بمقداره عظيما كان أو غير عظيم ، بل نقدر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ولم تكن من وراء العمل نية ، ولكننا اذا عظّمنا الانسان فانما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ويستحق اكبارنا ويرتفع الى المكانة التى تلحظها الانسانية بأسرها وتعود عليها فى منافعها وخيراتها

فكل عظيم قدير ..

ولكن ليس كل قدير بالعظيم ..
والعظمة قدرة وزيادة ..

أما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة فضلا عن أن تكون عظمة وزيادة ..

ومعاوية قدير ولا ريب ..

أما انه عظيم فذلك الذى نعرض له فى الصفحات التالية لنبين فيها الفارق بين القدرة والعظمة ، فى ترجمة رجل من أنفع الرجال النابهين لتوضيح هذا الفارق بميزان الحوادث وميزان الأخلاق

ومن سرف القول أن يقال ان معاوية لم يكن يعمل بباعث من الغيرة الدينية أو بباعث من أحكام المروءة والعرف المتبع فى الأخلاق

فليس فى وسعه أن يتجرد من هذه البواعث لو أراد ، وليس فى وسع رجل أسلم على يد النبي عليه السلام وصاحبه وعمل على أيدي الجلة من صحابته أن يغفل عن غيرة دينه وأحكام فرائضه وواجبات المروءة فى عرف زمنه ..

***

الا اننا ، مع العلم بغيرته الدينية فى شعوره وفعاله ، نستطيع أن نعلل جميع أعماله بعلة المصلحة « الذاتية » أو مصلحة الأسرة والعشيرة

ونستطيع أن نعمم القول بغير استثناء على كل مسعى من مساعيه وكل حيلة من حيله وكل مأثرة من مآثره ، فنقول ان المصلحة الذاتية أو مصلحة الأسرة والعشيرة كافية لتعليلها والقيام بها ، وانه لم يعارض المصلحة الذاتية بارادته فى حين واحد ، وعارض المصلحة العامة فى أحيان

كان رجلا قديرا ولكنه لم يكن بالرجل العظيم

ومهمة المؤرخ فى سيرته أن يقدر قدرته وأن يعرف ما اقتدر عليه بسعيه وتدبيره وما اقتدر عليه بمساعدة الزمن وممالأة الحوادث والمصادفات ..

وهذه المهمة تتقاضانا « أولا » أن نجمل القول فى جميع التمهيدات

التى مكنته من الاقتدار على مقاصده ، ومنها ما كان سابقا للاسلام وسابقا لمولده ، ومنها ما تم قبل ملكه وما تم فى أثناء ملكه الى ما بعد موته ..

***

وتتقاضانا هذه المهمة « ثانيا » أن نزن المواهب العقلية والخلقية التى اشتهر بها وأسند اليها ما أسند من أسباب نجاحه

فنبدأ الكلام فى الفصول التالية بالتمهيدات التاريخية من قبل الاسلام الى قيام الدولة الأموية ، ثم نتلوها بتحليل الأخلاق والمواهب التى تعد من وسائل نجاحه ..

ونلاحظ فى ذلك كله أن « نقدر القدرة » التى ثبتت لهـذا الرجل القدير من وراء المدائح والاهاجى ووراء الدعاية له والدعاية عليه

ونحسب اننا وفينا بهذه الأمانة اذا انتهينا من هذه الصفحات الى الوزن الصحيح الذى يوزن به رأس الدولة الأموية ويوزن به غيره من أعلام التاريخ ..

تمهيدات الحوادث

بدأ التمهيد لبني أمية فى الشام قبل الاسلام بجيلين متعاقبين ، وكانت الشام قبل ذلك سوقا عامة لقريش ، تأتيها قوافل الصيف بتجارة الحجاز فى حراسة الرؤساء من بيت مناف على الأكثر ، وأظهرهم فى الجيل الذى سبق الدعوة النبوية هاشم بن عبد مناف .

ولم يكن رجحان هاشم بالرئاسة والثروة حائلا بين الأمويين وغشيان الشام للتجارة والاقامة بين المدن والبادية فيها ، بل كان هذا الرجحان — فيما اتفقت عليه الأخبار — سببا لهجرة أمية من مكة واقامته بالشام عشر سنين ، اذ تنافر هاشم وأمية وتنافسا على الرئاسة ، واحتكما الى الكهان كعادتهم على أن يكون للغالب اجلاء المغلوب عن مكة عشر سنين ، فقضى المحكمون لهاشم على أمية ، وخرج أمية الى الشام فاختارها مقاما له خلال هذه السنين ، وربما كان ضيقه بالزعامة المعقودة لهاشم فى مكة من دواعى الهجرة قبل الحكم عليه فى قضية المنافرة المشهورة ، وهى قضية قد تصح بتفصيلاتها أو لا تصح الا بجزء منها ، ولكن هجرة أمية الى الشام لم تكن مما اختلف عليه المختلفون .

ولما مات هاشم شغل أبناؤه بالرئاسة الدينية الى جوار الكعبة ، وآل اللواء الى بني أمية ، وهو عمل ينوط بصاحبه حراسة القوافل الى الشام واليها ، اذ لم يكن من حاجة قريش فى الجيل السابق للاسلام عقد اللواء لجيش يغزو القبائل أو يدفع غزوتها لمكة ، وانما كان العمل الأكبر لصاحب اللواء حراسة طريق التجارة بين مكة والشام على الأكثر ، وبين مكة واليمن فى قليل من الأوقات . وكان عملا يحتاج فى الواقع الى جيش صغير وقائد يحمل لواءه ، لأن القافلة التى تخرج للتجارة تجمع أموال

قريش وتسير بها المئات من الابل ، ولا ينتظم سيرها بغير قيادة تتو تنظيم المخافر وتوزيع المؤنة والتعرف الى رؤساء القبائل التي تقيم على الطريق أو تقيم على مقربة من أسواق الشام فى البادية ، فهى عمل متصل لا ينتهي بانتهاء رحلة القافلة ولا تزال له روابطه وعلاقاته بين صاحب اللواء وأعوانه وبين ذوي الشأن فى مراحل الطريق وفى منازل المقام

ومن المشهور المتواتر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان معروف المكانة بين رؤساء الدولة البيزنطية على حدود بلاد العرب كما كان معروف المكانة بين الوجوه من قبائل البادية ، وخلعت عليه الدولة البيزنطية لقبا من ألقاب الرئاسة ليسفر بينها وبين قومه ويعينها فى خلافها مع العرب الغساسنة بالشام ، وكانوا يجنحون أحيانا الى جانب فارس فى حربها لبيزنطة ، ويرى البيزنطيون انهم لا يستغنون عن قوة من العرب لمقاومة هذا الخطر من البادية ، ولو بتهديد الغساسنة وتشكيكهم فيمن يجاورهم أو يعاملهم من العرب الحجازيين

وقد كان بنو أمية على شبه محالفة بينهم وبين بني كلب أقوى القبائل ببادية الشام وأشدها خطرا على الغساسنة ، ومنها من تنصر منافسة للغساسنة فى حظوة الدولة مع ارتقابهم للفرص بين الدولتين وبين القبائل العربية ، وقدعرفنا بعد الاسلام ثلاثة من كبار الأمويين أصهروا الى بنى كلب فى عصر واحد ، وهم سعيد بن العاص والي الكوفة والخليفة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان ، ولا تكون هذه المصاهرات أول العهد بالصلة بين الفريقين ، فهى بقية لما تقدمها من الصلات

ومن المشهور أيضا أن أبا سفيان كان على صلة بولاة الأمر من البيزنطيين ، وكان يلقى هرقل وأمراء بيته فى رحلاته ، ويعوّل عليه هؤلاء فيما يعنيهم من أحوال العرب وأخبارهم ، فقيل انهم سألوه عن النبي عليه السلام عند مبعثه ، وان السائل جعل يستنبئه عن صفاته عليه السلام على مسمع من قوم حجازيين فى المجلس ، ويحذره أن يكذب فيكذبه من سمع كلامه من قومه . قال أبو سفيان : وعلمت انهم لا يكذبونني ان

كذبت ، ولكننى صدقت الصفة ضنا بمروءتى أن أقول ما يعلم السامعون انه نبأ مكذوب ..

الى المقريزي « انه ما فتحت بالشام كورة الا وجد فيها رجل من بني سعيد بن العاص ميتا » ..

وكان النبى صلوات الله عليه يتحرى فى اختيار الولاة أن يندبهم للولاية حيث يتيسر لهم العمل بموافقة الرعية ، فاختار عمر بن سعيد بن العاص واليا لتيماء وخيبر وتبوك وفدك ، وكلها على طريق التجارة الأموية ، وسار أبو بكر على هذه السنة فاختار يزيد بن أبى سفيان قائدا لجيش من جيوش الحملة على الشام وولاه بعض أقاليمها بقية حياته ، وكانت وفاته فى عهد الفاروق فجرى على هذه السنة وعهد بالولاية الى أخيه معاوية حيث بقي الى ما بعد خلافة الفاروق ، وكان يعمل برئاسة أخيه قبل موته ويحمل اللواء بين يديه

ومن بني أمية من كاد يصرّح بالطمع فى الملك بعد رسول الله على عهد الصديق . اذ كان من أبناء عمرو بن سعيد بن العاص خلف على الولاية التى ولاها اياه النبى صلوات الله عليه ، فلما بويع أبو بكر بالخلافة أنفوا أن يعملوا له وقالوا : « نحن أبناء بني أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا » ..

ولا يقول هذا القول الا من يطلب الرئاسة لنفسه ولا يقر بالرئاسة لغير ذي نبوة أو رسالة إلهية ، وينظر الى الخلافة نظرة دنيوية لا تفاضل فيها بصفة من صفات الدين وسابقة من سوابق الهداية

وكان الفاروق قد ولى معاوية ولاية من الشام فضم اليه عثمان سائر الشام وألحق به أقاليمها من الجزيرة الى شواطىء بحر الروم ، فلما قتل عثمان كان قد مضى لمعاوية فى ولاية الشام عشرون سنة ، لم يبق فيها من ينازعه أو يعصيه ، ولم يكن من عمالها وحكامها المرؤوسين له أحد من غير صنائعه وأشياعه والمستقرين فى كنفه ، لأنه حرص فى ولايته على استبقاء من يواليه واقصاء من يشغب عليه ، وجعل همه الأكبر أن يخرج

أهل الفتنة من الشام ولا يبالي بعد ذلك ما صنعوا فى سائر الولايات ، فتفرقوا كلهم بين الكوفة ومصر والحجاز

كان عثمان يسمع الأقاويل عن ولاية الشام ويتلقى الشكايات ممن يطلبون منه عزل ولاته وأولهم معاوية ، فيعتذر لهؤلاء الشاكين بعذره المعهود ويقول لهم انه انما ولى على الشام من ارتضاه قبله عمر بن الخطاب .. وقال ذلك مرة لعلي بن أبى طالب فقال له علي : نعم . ولكن معاوية كان أطوع لعمر من غلامه يرفأ ، وصدق الامام فيما قال

فقد كان معاوية يصطنع الأبهة فى امارته ويقتصد فيها جهده بعيدا عن أعين الفاروق ، فاذا لامه الفاروق على شيء منها رآه بعينه اعتذر له بمقامه بين أعداء ألفوا الأبهة واتخذوها آية من آيات القوة والمنعة ، وكان يؤدي حساب ولايته لعمر كلما سأله الحساب ويقنع منها برزقه من بيت المال ألف دينار فى العام ، وانفال مما يجمعه من تجارة أهله أو مما وراء الحساب ..

فلما بويع عثمان بالخلافة تركه فى مكانه وضم اليه سائر الشام كما تقدم ، وطلب منه معاوية أن يرخص له فى زرع الأرض التى تركها أصحابها وهاجروا الى بلاد الروم فأجابه الى طلبه ، ووضع معاوية يديه على موارد من المال تقوم بأعباء دولة ، ولم يكن يخشى عليها من الحساب ما كان يخشاه على عهد عمر بن الخطاب ، وأوشكت الشام أن تقوم وحدها مملكة مستقلة يتولاها ملك مستقل فيما عدا الأوامر التى كانت تأتيه من المدينة بتحصين الثغور وامداد الغزاة وتسيير الجيوش الى الأطراف بقيادة الاعلام من الصحابة

وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الاسلامية قسمين ، أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام حصة معاوية ، والآخر لا وفاق فيه وهو حصة على من الحجاز والعراق ؛ وقد تدخل مصر فيها حينا وتخرج منها أكثر الأحايين

وتولى معاوية بلادا لا ينازعه فيها منازع ولا يود أحد فيها أن تخرج من يديه وتؤول الى غيره

وتولى علي بلادا كلها نزاع من أمر الخلافة الى أصغر الأمور . فنازعه الخلافة طلحة والزبير ، وأحاط به رهط من المتزمتين المتفقهين يسألونه عن الكبيرة والصغيرة ويجتهدون اجتهادهم فى كل شأن من شؤون السياسة

وهذا الى الفارق بين وفرة المال من جانب وندرته من الجانب الآخر

وهذا الى فارق آخر أكبر وأعسر وأعضل على الحل والمحاولة ، وهو الفارق بين الملك والخـلافة ، وقد افترقت طريقاهما منـذ سنين ، وتم افتراقهما بعد أيام عثمان

فكانت أعباء الخلافة كلها على علي ، وكانت أحوال الملك كلها مع معاوية مواتية له محيطة به فيما يريد وفيما لا يريد

كان الناس مع علي ينظرون الى سنة النبي وسنة الصديق والفاروق من بعـده ، وكان الناس مع معـاوية ينظرون الى هرقل وكسرى ، ولا يسومونه أن يحكم كما حكم النبي أو كما حكم من بعده الخليفتان الأولان

وكان لا بد لعلي ــ كما قلنا فى عبقرية الامام ــ من ملك أو خلافة .. ولن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده . لأنه عصر ملك تهيأت له دواعيه الاجتماعية وتهيأ له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله ، ولم يكن معاوية زاهدا فى الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه . فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه »

وهذه حالة لم تطرأ دفعة واحدة فى أيام النزاع بين علي ومعاوية . بل ظهرت بوادرها فى أيام الصديق وازدادت ظهورا فى أيام الفاروق ، وحدث كما أجملنا ذلك فى كتاب ذي النورين ان الصديق « اتخذ الحيطة للفتنة واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له فى الرأي وبين تجنيبهم الفتنة ومآزق الولاية ، وكان يتذمر من ترخص بعض الصحابة فى أمور تؤذن بما بعدها فقال لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت : « ما لقيت منكم أيها المهاجرون .. رأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهي

مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الاذربي كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان » ..

وانقضى عهد الصديق ثم انقضى عهد الفاروق « والمجتمع الاسلامي مجتمعان : أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه ، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه ، وأوشك عمر على قوته أن يحار فى تدبيره ، وقال الشعبي انه قضى وأوشكت قريش أن تمله لشدته ووقوفه لها بحيث وقف حائلا بينها وبين نزعاتها ومطامحها فى دنياها الجديدة »

***

وتتابعت السنون على أيام عثمان.وهذان المجتمعان يلجان فى الافتراق حتى افترقا غاية افتراقهما فى النزاع بين علي ومعاوية . فكان علي يكبح تيارا جارفا لا حيلة له فى السير معه ولا فى دفعه ، وكان معاوية يركب ذلك التيار رخاء سخاء بغير مدافعة وبغير حيرة ، ويركبه معه من لا يدافعه ولا يحار فيه ..

وكأنما بقيت بقية من التيسير هنا والتعسير هناك ، فجاءت حصة علي حيث جاء الموالي من كل جنس يطلبون الحق الذي يطلبه كل مسلم ممن لا ينكر على أحد حقاً من الحقوق ، وخلت الحصة الأخرى من هؤلاء الموالي وخلصت للعرب يوم كان العرب وحدهم قوام الدولة فى دمشق بين القرشيين واليمانيين

أحاط الموالي بالامام حتى قال له بعض أنصاره من العرب : « لقد غلبتنا هذه الحمراء عليك » وسار الامام فى العدل بينهم وبين العرب سيرة من يعلم انه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي الا بالتقوى

أما فى الشام فقد كان معاوية لا يباليهم لأنهم قلة هناك لا يحسب لها حساب ، ومرضاة العرب أولى من مرضاة الموالي فى دمشق حيث قامت الدولة الأموية ، وحيث هان خطبهم بعد ذلك حتى قيل انه هم بقتلهم والبطش بهم على غير عادته ، وقال لهم غير مرة انكم عجم وعلوج !

وما كان من قبيل المصادفات ان الدولة الأموية قامت فى دمشق وان الدولة التى قوضتها — وهى دولة بنى العباس — قامت فى بغداد . فان دمشق ما كانت لتصلح مقاما للدولة بعد اتساعها للعرب والفرس والترك والديلم وموالي الأمم من كل قبيل

وقد كانت العصبية العربية قوة للدولة الأموية فى نشأتها ، وكان اختلاط الموالي ضعفا للدولة القائمة فى الجزيرة ، لأنهم أشتات متفرقون لم يكن منهم أحد يقبض على زمام من أزمتها ..

ونجمت ناجمة الخوارج فلم تكن لهم جرثومة فى الشام ينجمون منها ، ولكنهم أصبحوا شعبة جديدة من شعب الشقاق بين الموالى والشيعة من العرب وأصحاب التزمت والزهد من أدعياء الاجتهاد وأدعياء الحق فى محاسبة ولي الأمر على ما شرعه الكتاب ..

***

ثم قتل علي دون صاحبيه المقصودين بالقتل معه معاوية وابن العاص ، فانتفع معاوية بعمله فى حياته كأنه أعفاه من جهاد منافسيه بالحجاز والعراق ، وانتفع بعده بالشقاق بين الشيعة والخوارج والموالي والعرب فى رقعة الجزيرة ، فاذا هم يضرب بعضهم بعضا ويغلبهم جميعا بأيديهم كلما تفرقوا وتقاتلوا ، وما كان فى وسعهم أن يتفقوا أو يكفوا عن القتال

وان القدرة التى خلصت بها الخلافة لمعاوية بين هذه الحوادث لتوزن بميزانها الصادق اذا شاء المؤرخ أن يخالف بين الكفتين .. فماذا كان معاوية صانعا لو أنه بويع بالخلافة فى المدينة ولم تكن له سابقة ولاية على الشام ؟ وماذا كان صانعا لو كان على الشام يومئذ منافس يسوسها على سنة الملك ويرتكن فيها الى قواعد راسخة من عهد الفاروق وقواعد راسخة من قبل الاسلام ؟

ثم انفرد معاوية بالخلافة ولزمته تبعة الدفاع عن الدولة فى وجه أعدائها فوضع المؤرخون فى كفته هذه المأثرة غير مقدورة ولا محدودة ، ولا منظور فيها الى التمهيدات التي من قبيل ما قدمناه أو تربي عليها

ولا شك أن رأس الدولة الأموية قد عمل على حمايتها ولا بد له من العمل على هذه الحماية . ولسنا نعني هنا انه حمى الدولة ليحمي ملكه ويحمي نفسه فهذا قد يدخل فى بيان النيات ولا يدخل فى بيان القدرة التى أعانته على عمله ، ولكننا نعني اننا لا نزن هذه القدرة بميزانها الصحيح الا اذا عرفنا ما اضطلعت به وكان لها يد فيه وعرفنا ما جرى فى مجراه بحكم الحوادث وليست فيه لها يد عاملة أو تدبير مقصود

فالفتح الاسلامي قد ضعضع دولة الروم الشرقية وفت فى أعضادها وترك فيها رجال الدين والدنيا معا يائسين من رجعة الشام الى حوزتها مؤمنين بتأييد الله للعرب الفاتحين عقابا للرعاة والرعية على خطاياهم وخطاياها ..

***

وقد سمع هرقل صيحة الوعاظ بهذا النكير بأذنيه فى مؤتمر أنطاكية ، وغادر سورية وهو يودعها ذلك الوداع الذى كاد الرواة أن يحفظوه بكلماته اللاتينية كما يحفظون كلمات سليمان الحكيم عن باطل الأباطيل

فقبل أن يفارق الارض السورية صاح كأنه ينشج بالبكاء : « الوداع يا سورية . الوداع الأخير » Vale Syria et Ultimatum vale

ورسخت هذه العقيدة فى قلوب خلفائه فلم تغن فيها وفرة العدة وكثرة الجند وأسلحة البر والبحر التى كانوا يجمعونها ولا تكاد تجتمع حتى تتفرق لأول صدمة أو تتفرق قبل اللقاء من أجل منام أو عيافة أوهام . وقد روى جيبون ان حفيد هرقل خنع للتسليم لأنه رأى فى المنام انه فى سالونيكا وهى كلمة تجانسها كلمة باليونانية معناها « اعط النصر لغيرك ! » ..

وفى تاريخ ميخائيل السوري « ان المنتقم الجبار أتى بأبناء اسماعيل من الصحراء ليخرجوا الأمم من ربقة الروم » ..

وقد روى ابن الاثير من حوادث سنة خمس وعشرين هجرية « ان معاوية غزا الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التى بين أنطاكية وطرطوس

خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة »
ولم ييأس العواهل الضعفاء من سورية وما جاورها من آسيا الصغرى بل يئسوا من القسطنطينية نفسها وهموا مرات بنقل العاصمة منها الى صقلية ، وتركها العاهل قنستانز فعلا (سنة ٦٦٨ م) ليقيم له عاصمة فى صقلية فأوشك أن يقيمها لولا انه قتل فى سرقسطة !
واقترنت بهزيمة الروم فى سورية هزائم شتى وشواغل متفرقة أيأستهم من الغلبة على الدولة الاسلامية ، ومن هذه الشواغل حرب الشعوب السلافية ومحالفتهم للمسلمين فى بعض الوقائع بآسيا الصغرى ، ومنها الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ومنها انقسام الاسطول بين قيادتين احداهما للعاصمة والأخرى للولايات المتفرقة

***

وربما كان اسم الدولة الاسلامية فى ابان الفتح حماية لها تقوم فى ترويع خصومها مقام العدد والحصون ، ولا أدل على ذلك من سلامة هذه الدولة فى عهد معاوية الثاني الذى اعتزل الحكومة ولزم داره كما جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطي « أربعين يوما وقيل شهرين وقيل ثلاثة أشهر » ..
قال السيوطي : « ولم يخرج الى الباب ولا فعل شيئا من الأمور ولا صلى بالناس »
ولما خلع نفسه قال : « أيها الناس ضعفت عن أمركم فاختاروا من أحببتم ، ثم احتضر وهو فى نحو العشرين فسألوه أن يستخلف أخاه خالدا فقال : ما أصبت من حلاوتها فلم أتحمل مرارتها ؟ » .
ولم يتفق المسلمون على خليفة بعد معاوية الثاني حتى قام عبدالملك بن مروان بالأمر سنة ثلاث وسبعين ... أي بعد تسع سنين
ودولة تسلم من بيزنطة تسع سنين وهي بغير خليفة متفق عليه لايبلغ من خطر عدوها أن يحتاج الدفاع عنها الى قدرة خارقة من ولي الأمر فيها ، وقد سلمت من ذلك العدو سنين قبل ذلك بين مقتل عثمان ومقتل

علي ، ولم يكن بين المقتلين يوم سلام واستقرار من الحجاز الى الجزيرة الى الشام الى مصر وما يليها من افريقية الاسلامية

والثابت المعروف أن الدفاع عن الشـام انما استحصد وتوطد قبل استقلال معاوية بولايتها فى أيام عثمان ، وان الدفاع الأكبر عنها بعد ذلك انما كان يتولاه من قبل الشرق ولاة الجزيرة ، ومن قبل الغرب ولاة مصر وافريقية ، وعندهم الجند والسفن ولهم الصلة الدائمة بالحجاز يسألون الخليفة المدد فيأمر من يشاء من الولاة أن يمدوهم به ، ومنهم معاوية فى الشام

وهذه الفترة فى تاريخ الدولة الاسلامية هى التى جعلت لها تلك المهابة التي أيأست بيزنطة من جدوى الهجوم عليها وصرفتها الى غير هـذه الوجهة من حدودها ، مع ادبار القوة وانقسام الأولياء والأعوان وضياع الثقة بالنصر ، بل باستحقاق النصر من الله

***

وبعد ..

فالمحصل من هذه الحوادث والتمهيدات أن المؤرخ الأمين مسـئول أن يحضرها جميعا فى حسابه والا كان كلامه عن « قدرة » معاوية كلاما جزافا لايؤخذ به فى تمييز أقدار الرجال وخصائص الطباع ، ولا يفيدنا شيئا فى التعريف بالوسائل التى مهد بها معاوية لنجاحه والوسائل التى تمهدت له قبل مولده ، وقبل الاسلام

وتتلخص قدرة معاوية فى خلائق مشـهورة مترادفة أشـهرها الدهاء والحلم وعلو الهمة أو الطموح

وهذه الخلائق هى موضوع البحث فيما يلى من الفصول قبل الكلام على نشأته وعمله وموجز تاريخه وصفوة الرأى فيه

الدَّهَـاء

اذا تحدث الراوية العربي عن صفة من الصفات العامة بلغ بهـا حد الاستقصاء ، فأثبت فى روايته كل مايقع عليه الحس من أخبار تلك الصفة وذكر لنا الاعلام المشهورين بها والحوادث التي دلت عليهـا والأقوال التي قالوها أو قيلت عنهم بصددها ، والفوارق التى يختلفون بها فيما بينهم،والألقاب التى أطلقت عليهم من جرائها ولم يتركوا مرجعا من مراجع الدراسة التى يحتاج اليها الباحث العصري في استقصائه الحديث بعـد استقصائهم القديم ، الا تحليل الصفات على حسب عواملها النفسية ، فانه باب لم يطرقوه ولم يطرقه أحد غيرهم من الأقدمين فى الأمم ، وعذرهم فى ذلك واضح لاتلزمهم بعـده حجة : عذرهم أن التحليل النفسي كله دراسـة حديثة تركبت على دراسـات علمية أو فكرية أخرى لم يكن للأقدمين عهد بها الى ماقبل بضعة قرون

كذلك تحدث لنا الراوية العربي عن شجعان العرب، وفرسان العرب، وأجواد العرب وصعاليك العرب ،ودهاة العرب فى الاسلام، ودهاة العرب فى الجاهلية، وكل ذوي الشهرة فى صفة من الصفات العامة التى تتعلق بها الروايات وتتناقل بها الأخبار

ويبدو لنـا ـــ ونحن نقرأ كلامهم عن دهاة العـرب ـــ أنهم كانوا « مولعين » بتلك الصفة خاصة ، يتحـدثون بها ويسـتطيبون حديثها ويتزيدون فيه كلما استطاعوا ، كأنهم يجاوزون بالدهاء حد الاعجاب الى حد التمني والعطف والمشاركة فى الشعور ، وعذرهم فى هذا أيضا واضح من تاريخهم وتواريخ منازعاتهم ومصـالحاتهم . فانهم كانوا يتفقدون فيها الدهاء جميعا فيجدونه حينا ولا يجدونه حينا آخر ، ولكنهم كانوا

يجدون الشجاعة والفروسية فى كل حين

وسبب آخر من أسباب الولع بالحديث عن الدهاء انه أصبح كفؤا للشجاعة أو راجحا عليها فى موازين الصفات الاجتماعية ، فاذا عيب رجل من رجالهم بقلة الشجاعة وجد العزاء ـ وفوق العزاء ـ بشهرة الدهاء أو دعواه ان لم يكن قد بلغ بدهائه مبلغ الشهرة الذائعة الصيت

فالدهاء عنـدهم كان مزية وضرورة وعزاء وغطـاء للخوف والجبن ودعوى سهلة لمن يدّعيهـا بغير برهان .. أما الشجاعة فبرهانها حاضر لا سبيل للمغالطة فيه ..

ولهذا يتزيد الرواة كثيرا فى أحاديث الدهاء ، ويوشك أن يجعلوه صفة من الصفات « السلبية » التى تقترن بنقص الشجاعة حيث نقصت فى مجال الغضب أو مجال الصولة والقتال ، وكاد القـارىء أن يفهم ـ بداهة ـ من وصف رجل بالدهاء أنه رجل لاصولة له ولا خوف من غضبه وبأسه ، وانما الخوف مما يحتال به أو يكيد

وكثير من أحاديثهم عن الدهاء يدخل فى عداد هذه المعاذير أو هذه الخلال المتشابهات ، ولكنهم اذا اتفقوا على دهاء رجل فى سيرة حياته بحذافيرها فالغالب أن يكون على شىء من الدهاء ، وان لم يكن دهاتهم كلهم من نوع واحد عند تحليل الأعمال والصفات ، ولم يكن مصـدر ذلك الدهاء ملكة واحدة فى العقل أو فى الطباع

لقد كانوا يطلقون الدهاء على كل وسيلة « غير صريحة » يبلغ بها صاحبها مأربه وينتهي بها الى منفعته ... فكل حيلة « غير صريحة » فهي دهاء على سواء ..

الا أن الواقع أن الوسائل « غير الصريحة » لاتتفق فى مصـادرها العقلية ..

فقد يعتمـد الرجل فى دهائه على قدرة عقلية فائقة يتسلط بها على الناس فيسخرهم فى مطامعه ويقودهم كمـا يقـاد المسـخر « بالتنويم المغناطيسي » لخدمته فيما يستفيدون منه أو فيما لافائدة لهم فيه على

الاطلاق ... وقد يكون فيه الضرر لهم كل الضرر وهم لايفقهون ، ويغشاهم السحر بغشاوته فلا يستمعون لما يقال لهم غير مايقوله ذلك الداهية أو يوحيه الى شعورهم بغير مقال

هذا هو الدهاء من الطراز الأول

ويليه الدهاء الذى لايعتمد على قدرة عقلية فائقة ولكنه يعتمد على قدرة « مادية » يستطيع بها صاحبها قضاء المصالح والتعامل مع غيره على أساس « التبادل » فى المنفعة المعروفة التى يفهمها المتبادلون جميعا بغير حاجة الى تغرير أو خداع أو اقناع

رجل يملك السلطان أو المال ، وأناس يحتاجون الى سلطانه وماله ، ولا يقدرون على بلوغ تلك الحاجة من غيره .. فلا هو يخدعهم ولا هم يخدعونه ، لأنهم كلهم يعرفون مايطلبونه ويعرفون وسيلتهم اليه ، فلا خادع فيهم ولا مخدوع ، وان لم يكونوا جميعا صرحاء فيما يتوسلون به أو يتوسلون اليه

من أي هذين الطرازين دهاء معاوية ؟

أمن طراز القدرة العقلية الفائقة التى تسخر الأعوان منقادين مستسلمين مغمضي الأبصار والبصائر ، أم من طراز القدرة المادية التى تعطى وتأخذ ويعاملها طلاب الحاجات لأنهم يعرفون مايحتاجون اليه ولا يعرفون طريقا الى حاجاتهم تلك غير هذه الطريق ؟

بأي الدهاءين تمكن معاوية من اجتذاب عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه وغيرهم من الدهاة الذين سارت بدهائهم الأمثال فى صدر الاسلام ؟

لعلنا نستطيع أن نقول ان هؤلاء الدهاة ومن جرى مجراهم قد خدعوه وسخروه لقضاء مآربهم ، كما نستطيع أن نقول انه هو قد خدعهم وسخرهم لقضاء مآربه ... فانهم جميعا قد أخذوا ناجزا مضمونا حيث يأخذ منهم العوض مقدرا غير مضمون ، وأياً ما كان القول فليس دهاء معاوية هنا دهاء القدرة العقلية الفائقة التى أوقعت فى روع أعوانه زعما

تخفى عليهم حقيقته وينقادون به اليه وهم لايفقهون . وانما أخذ منهم وأخذوا منه على حد ســواء ، وانما أعطــاهم المصــلحة التى يريدونها ولا ينتظرون قضاها عند غيره ، ولم يتمكن من اعطائهم تلك المصلحة الا لأنه سبقهم الى ولاية الشام عشرين سنة ووضع أيديه على المرافق التى لم يكن فى وسع واحد منهم أن يضع عليها يدا من أيديه

ان رواة التاريخ العربى يحدثوننا كعادتهم فى التوصيف والتقسيم ، عن دهاتهم فى صدر الاسلام فيقولون انهم أربعة : عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ويقولون ان ابن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة ، ومعاوية للروّية

وهذا تقسيم صحيح فى جملته على الايجــاز ، وقد يعرض له بعض التعديل عند الاسهاب والتفصيل ، ولكن الرأي الذى لاشك فيه انهم جميعا من الدهاة على اختلاف نوع الدهاء ، وان دهاء الثلاثة الأولين هو الذى قادهم الى معاوية ولم يكن دهاء معاوية هو الذى قادهم اليه . فقد عرفوا مطالبهم وعرفوا أنهم يجدونها عند معاوية حيث لايجدونها عند غيره ، ولو انهم استطاعوا أن ينازعوه الخلافة لما سلّموها له طوعا ولما قنعوا منه بالنصيب الذي ارتضوه فى خلافته ، ولكن الخلافة كانت مطلبا بعيدا عليهم فلم يضيعوا فيه جهودهم ونظروا الى غاية المطالب دونه فبلغوه بجهد يسير

لم تكن لأحد منهم ولاية تمتد فتشمل سائر الولايات وتنتهى بذلك الى الخلافة الا زيادا بن ابيه فانه كان واليا على أقاليم من فارس يخشى بأسه لما عنده من المال والجند ، ولكنه مغمور النسب يدعونه بابن أبيه قبل أن ينسبه معاوية الى أبى سفيان ، ولن يسلس زمام الخلافة لرجل مثله الى جانب طالب من طلابها كمعاوية أو من دون معاوية فى النسب والمكانة ..

أما ابن العاص والمغيرة بن شعبة فقد كانا من آحاد الرعية يوم نشب

النزاع على الخلافة بين عميد بنى هاشم علي بن أبى طالب وعميد بنى امية معاوية بن أبى سفيان ، ولم يكن لأحدهما جند ولا مال ولا عصبة تنافس العصبة الهاشمية أو العصبة الأموية ، فهما خليقان أن ينظرا الى المطلب الميسور حيث تيسر ، وقد نظرا اليه فلم يعرفا له طريقا أقرب من طريق معاوية وبخاصة بعد مقتل على رضوان الله عليه

وقصـــة كل رجل من هؤلاء الدهاة الثلاثة لاتدع محـــلا للظن بأنهم سيقوا الى نصرة معاوية مخدوعين أو منقادين بحيلة من حيل الدهاء ، بل هى حرية أن تنبئنا بغلبتهم على معاوية فى المبادلة ، وانهم أخذوا منه فوق ما أعطوه ، وانه هو قد أعطاهم شيئا فى اليد حين كان عطاؤهم كله شيئا فى التقدير ، اما من قبيل الأمل المنظور أو من قبيل الخوف المحذور ..

دعا عمرو بن العاص ولديه عبد الله ومحمدا فقال لهما : انى قد رأيت رأيا ولستما باللذين ترداني عن رأيي ، ولكن تشيران علي ... اني رأيت العرب صاروا عنزين يضطربان وأنا طارح نفسي بين جزاري مكة ولست أرضى بهذه المنزلة ، فالى أي الفريقين أعمد ؟

قال عبد الله ـــ وهو من أهل التقـــوى ـــ ان كنت لابد فاعلا فالى علي ..

قال عمرو : اني ان أتيت عليا يقول لي انما أنت رجل من المسلمين ، وان أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني فى أمره ، وكان محمد ابنه الآخر على هذا الرأي فقال لهما عمرو : أما أنت يا عبد الله فقد اخترت لآخرتي ، وأما أنت يامحمد فقد اخترت لدنياي

ويروى انه لما استشارهما قال له عبد الله : ان النبي عليه الســـلام قد توفي والشـــيخان بعده وهم راضـــون عنك ، فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس ، وقال له محمد : انت ناب من أنياب العرب فكيف يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ؟ فأجابهما بما تقدم،وأتى معاوية فوجدهم يطلبون دم عثمان فمضى معهم يقول : اطلبوا دم الخليفة المقتول..

والمشهور فى رواية صاحب الامامة والسياسة ابن قتيبة أن معاوية كان غافلا عن شأن عمرو وعن خطره فى معونة أي الفريقين فأعرض عنه حتى نبهه عتبة بن أبي سفيان الى شأنه وخطره فكتب اليه يقول : « أما بعد فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ماقد بلغك وقد سقط علينا مروان بن الحكم في رافضة من أهل البصرة وقدم علي جرير بن عبد الله فى بيعة علي وقد حسبت نفسي عليك فأقدم على بركة الله »

وتردد عمرو قليلا بين شد الرحال وحط الرحال فقال له غلامه وردان ــ وهو من الموصوفين معه بالدهاء : اما انك ان شئت بدأتك فى نفسك : اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت مع علي الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بلا آخرة ، فأنت واقف بينهما . فقال عمرو : ما أخطأت ما في نفسي ، فما ترى يا وردان ! فقال : أرى أن تقيم فى منزلك فان ظهر أهل الدين عشت فى دينهم ، وان ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك ، فقال عمرو : الآن حين شهرتني العرب بمسيري الى معاوية ؟

وقدم عمرو على معاوية فساومه على رضاه ، فلم يقنع بما دون ولاية مصر مدى الحياة ، وهذه صفقة كأنها صفقة المنتصر الذى يملي شروطه في حومة الحرب ، لأن ابن العاص كان واليا على مصر فعزله عثمان ولم يزل واجدا على عثمان لذلك،حتى قيل انه كان يحرض عليه ويخاذل بين أنصاره ، فاذا جاء الرجل قوما يطلبون دم عثمان فأخذ منهم ما أباه عثمان عليه فانما هو الرغم ولا مبالاة بما يقولون وبما يقال !

وشق على معاوية أن يجيبه الى هذا المطلب الضخم « فتلكأ معاوية ــ كما جاء فى الامامة والسياسة ــ وقال : ألم تعلم أن مصر كالشام ؟ قال : بلى ، ولكنها انما تكون لي اذا كانت لك ، وانما تكون لك اذا طلبت علياً على العراق .. فدخل عتبة بن أبى سفيان على معاوية فقال : اما ترضى أن تشتري عمرا بمصر ؟ ان هي صفت لك ليتك لاتغلب على الشام . فلما سمع معاوية قول عتبة بعث الى عمرو فأعطاه مصر وكتب فى أسفل الكتاب : ولا ينقض شرط طاعة ، فكتب عمرو : ولا تنقض طاعة شرطا »

وعلى هذا خرج عمرو من الصفقة غالبا غير مغلوب ، وفهم مايبتغيه فقصد اليه ولم يكن معاوية يفهم مايبتغيه الا بعد ممانعة واستعصاء .. وقد عقد معاوية لعمرو بعد ذلك أربعـة ألوية : لواء له ولواء لكل من ولديه ولواء لغلامه وردان

يقال فى مصطلحات عصرنا عن الحيلة التى لا تخفى ولا حاجة بها الى اخفاء انها « لعب على المكشوف » .. كأنها هى لعبة تلعب نفسها بنفسها ولا محل فيها لتدبير اللاعبين لظهوره واتباعه فى اللعب منهجا لا محيد عنه

وهكذا كانت الحيلة بين عمرو ومعاوية

قال عمرو لمعاوية : « أترى أننا خالفنـا عليـا لفضل منا علينا ؟ ... لا والله . ان هي الا الدنيا نتكالب عليها . وايم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك والا نابذتك »

وعلى هذه الخطة « المكشوفة » بدأت المعاملة بين الرجلين ، وكان حظ عمرو فيها أكبر من حظ معاوية ، بالقياس الى مابذل فيه

***

أما المغيرة بن شعبة فقد كان يبيع سمكا فى البحر ويشتري به سمكا مطبوخا شهيا على المائدة

عزله الفاروق عن ولاية الكوفة لأن قوما شهدوا عليه أنهم وجدوه على ريبة مع امرأة غير امرأته ، وقال هو انها امرأته وان الأمر إلتبس على الناظرين لشبه بين المرأتين ، ولم تثبت التهمة عليـه ثبوتا يوجب اقامة الحد ، ولم تسقط عنه سقوطا يزيل الشبهة ، فعزله الفاروق وأبقاه زمنا بغير عمل كأنه يؤدبه ويستتيبه ، ثم بدا له أن يعيده الى ولايته فدعاه اليه وشدد عليه ليجتنبن الشبهات حتى الظنة ، وولاه الكوفة مرة أخرى ، فلما قام عثمان بالخلافة عزله فاعتزل السياسة حتى قتل عثمان وبويع علي بالخلافة فى المدينة ، فذهب اليه يمهد فى العهد الجديد للزلفى عند الامام وعند صاحب الأمر بالشام — معاوية — فى وقت واحد ، وأشار على الامام باقرار معاوية فى ولايته ليدين له بالولاء ثم يعزله متى شاء . فلما أبى

الامام أن يقره عاد اليه فى اليوم التالى فقال : « اني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفتني فيه ، ثم علمت أن الصواب فيما رأيت ، فأعزلهم — أي ولاة عثمان — واستعن بمن تثق به ، فانهم أهون شوكة مما كان » ..

وعاد المغيرة الى عزلته يترقب ، ثم قصد الى معاوية بعد رجحان كفته فى أمر الحكمين غير مجازف بشيء بعد استقرار أمر الشام — على الاقل — لمعاوية وحزبه ، فولاه معاوية امرة الحج بعد انفراده بالدولة ، وكان المغيرة ينظر الى ولايته الأولى على الكوفة كما نظر ابن العاص الى ولايته الأولى على مصر ، فلما أراد معاوية أن يعهد بهذه الولاية الى عبد الله بن عمرو بن العاص ذهب اليه يبذل النصيحة التى يأخذ منها أكثر مما يهب وقال له : أتستعمل عبد الله على الكوفة وأباه على مصر ؟ .. انك بين نابي الأسد ! فاستمع له معاوية وعزل عبد الله وولاه فى مكانه ، وسمع عمرو بخبر هذه المكيدة فردها بمثلها ، ولم يطلب اعادة عبدالله الى ولايته بل قنع بحرمان المغيرة من ولاية الخراج واصطنع النصيحة للخليفة الجديد فجاءه يقول : انك تستعمل المغيرة على الخراج فيأخذه ولاتستطيع أن تنتزعه منه ، والرأي أن تولي على الخراج رجلا يخافك ولا تبالي أن تعزله متى شئت ، وأن تستعمل المغيرة على الصلاة والامارة ، فلا يقوى عليك بغير مال ، فاتبع معاوية مشورته غير كاره . لأنها أكسبته المال والعداوة بين الداهيتين

ثم استقر الأمر لمعاوية فهان عليه خطب المغيرة وهم بعزله ، فنمي الخبر الى المغيرة من عيونه حول معاوية وأشفق من غضاضة العزل،فآثر أن يذهب اليه معتزلا وأن يحتال مع ذلك حيلته التى يرغم بها معاوية على استبقائه وهو عزيز الجانب مرغوب فيه

شخص الى دمشق فاختلى بيزيد كأنه يلقاه عرضا ، ووسوس لهأن يطلب الى أبيه تسميته لولاية العهد ، وزين له الأمر قائلا : « ان أصحاب النبي وكبراء قريش قد ذهبوا وبقي الأبناء وأنت من أفضلهم فلا أدري مايمنع

أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟ قال : أوترى ذلك يتم ؟ قال : نعم .. فدخل يزيد على أبيه وأخبره بمقالة المغيرة ، فتعجل معاوية لقاءه واستدعاه ليطمئن الى حقيقة الخبر ، وابتدره سائلا : ماهذا الذي يقوله يزيد ؟.. قال : اني يا أمير المؤمنين قد رأيت مارأيت من سفك الدماء بعد عثمان ، وفى يزيد منك خلف فأعقد له البيعة بعدك ، فان حدث بك حدث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة .. قال معاوية : ومن لي بهذا ؟.. قال : أكفيك أنا أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بين هذين المصرين أحد يخالف .. فأمره معاوية أن يرجع الى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته فى ذلك ، ثم يرى مايرى

قال المغيرة لبعض هؤلاء الثقات : لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية وفتقت عليهم فتقا لايرتق أبدا . ثم أجابه ناس من قبيله الى بيعة يزيد فأرسل منهم عشرة الى دمشق ولم يرسل سائرهم ليمد فى حبل المساومة ، وكان من حكمة معاوية أنه استمهلهم وطلب اليهم ألا يعجلوا باعلان رأيهم ، ولم يكن اعلان هذا الرأي من ارب المغيرة لأنه باق فى ولايته ما احتاج الأمر الى بقائه قبل اعلان البيعة والاتفاق عليها ، وفى كل أولئك كان المغيرة كاسبا لايفقد شيئا يقدر على استبقائه ، فان خرج مستعفيا فذلك خير من خروجه معزولا ، وان كانت المساومة على ولاية يزيد للعهد مجدية له فيما أراد فقد ربح ولم يخسر ، وباع السمك فى البحر والشبكة من عند غيره ، وان أعرض معاوية عن المساومة ولم يقبل عقد البيعة لابنه — وهو أبعد الفروض — فقد كسب الوالى المعزول ولاء يزيد ولم يفقد ولاء معاوية لأنه مفقود قبل ذلك .. ولعله يرمي من هذا التلويح بولاية العهد الى استثارة الأمير المحزوم واغرائه بأبيه وانتقامه منه بالكيد له فى حجاب الحرم ان لم يقدر على الانتقام منه بالثورة والعصيان ، ويقال بحق فى جميع هذه الأحوال ان المخدوع من الرجلين — معاوية والمغيرة — لم يكن هو المغيرة ان كان لابد بينهما من مخدوع

وكان زياد بن أبيه آخر المبـايعين من الدهاة الثـلاثة ، فلم يستطع معاوية أن يقنعه بترك فرصة من الفرص التى كان يترقبها ويؤثرها على مبايعة معاوية بالخلافة ، ولم يقبل على معاوية وله رجاء قط فى الاعراض عنه ، مع أنه كان أول المنظور الى بيعتهم فى تقدير بنى أمية ، لأنه كان — كما نقول فى عرف هذه الأيام — ولدا شرعيا لأبى سـفيان ، وأخا لمعاوية من أبيه ..

ولاه علي بن أبي طالب فارس وكرمان ، فأرسل اليه معاوية يتوعده فقام زياد فى الناس خطيبا يغلظ الجواب ويرد الوعيد بمثله ، وجعل يقول فى خطبته على رؤوس أتباعه ومسمع من أعوان معاوية : « العجب كل العجب من ابن آكلة الاكباد ورأس النفاق ! يخوفني بقصده اياي وبيني وبينه ابن عم رسول الله فى المهاجرين والأنصار . أما والله لو أذن لى فى لقائه لوجدني أحمر مخشيا ضرّابا بالسيف » فكتب اليه معاوية يترضاه ويلين القول ودعاه بزياد بن أبى سفيان ، ثم قال : « كأنك لست أخي ، وليس صخر ابن حرب أباك وأبي ، وشتان مابيني وبينك . أطلب بدم ابن أبى العاص وأنت تقاتلني ، ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبـل النساء فكنت كتاركة بيضها بالعراء وملحفة بيض أخرى جناحها ، وقد رأيت ... ألّا أؤاخذك بسوء سعيك وان أصل رحمك وابتغي الثواب من أمرك . فاعلم — أبا المغيرة — انك لو خضت البحر فى طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم الا بعدا ، فان بنى عبد شمس أبغض الى بنى هاشم من الشفرة الى الثور الصريع وقد أوثق للذبح ، فأرجع — رحمك الله — الى أصلك واتصل بقومك ، ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره . فقد أصبحت ضال النسب ، ولعمري مافعل بك ذلك الا اللجـاج . فان أحببت جانبي ووثقت بي فامرة بامرة ، وان كرهت جانبي ولم تثق بقولي ففعل جميل ، ولا علي ولا لي . والسلام »

على أن زيادا لم يستجب لدعوته حتى قتل الامام وصالح ابنه الحسن معاوية على شروط تسلمه زمام الأمر كله فى حياته ، ولبث معاوية قلقا من

جانبه لايأمن مكره وجرأته ، يقول لخاصته : مايؤمنني أن يبايع لرجل من أهل البيت فاذا هو قد أعاد علي الحرب جذعة ؟.. فتقدم المغيرة يتوسط بينهما ليشد ساعده بزياد في كيده لابن العاص ، واستأذن معاوية في اتيانه فأذن له أن يلقاه ويتلطف في خطابه وجاءه المغيرة على يأس من خلافة بني هاشم وأمل مبسوط مع المواعيد وتصحيح النسب في خلافة بني امية ، واستجاب زياد للمغيرة في أمر البيعة لمعاوية وتمنع بعد ذلك في أمر البيعة ليزيد بولاية العهد ، وأنفذ رجلا من ثقاته الى الخليفة ليوصيه بالاناة « فان دركا في تأخير خير من أناة في عجلة » ولولا أنه مات قبل البيعة بولاية العهد لما استقر الأمر على قرار

هؤلاء هم الدهاة الثلاثة ، لم يغلب أحد منهم على رأيه بدهاء من معاوية وانما أفادوا منه جميعا فوق ما أفادوه

وتذكر في هذا المعرض بيعة الحسن فلا يقول قائل من المطنبين في دهاء معاوية أو من المقتصدين في أمره أنه كان عملا من أعمال الدهاء دخلت فيه الحيلة على الحسن وصحابته . فانما بايع الحسن بعد أن ثار به جنده واجترأوا على نهب معسكره حتى امتدت أيديهم الى البساط الذي يجلس عليه وجرحوه في فخذه ... وقيل في أسباب تلك الفتنة ماقيل من مختلف الأسباب والاشاعات، فزعم بعضهم أنها نشبت في المعسكر بعد أن شاع فيه مقتل القائد الأكبر قيس بن سعد ، وزعم بعضهم أنها نشبت فيه بعد اشاعة التسليم وقبول المصالحة بين الحسن ومعاوية ... ولا أمان على كل حال لأنصار يجترئون على امامهم بالنهب والسطو لسبب من الأسباب كائنا ماكان ، بعد ماتقدم من عنت هؤلاء الأنصار للامام في حياته وشقاقهم فيما بينهم واستبداد كل منهم بفتواه في أمر الدين وأمر السياسة والولاية . فلو لم يكن معاوية على حظ من الدهاء — قل أو كثر — لما استعصى عليه أن يظفر من الحسن بالمصالحة على شروطه، فضلا عن المصالحة على الشروط التي أمليت عليه

وما يذكر أحد غير هؤلاء من النابهين المعدودين الذين قصدوا الى

معاوية بالبيعة أو المؤازرة الا كان على علم بما يقصده قبل لقاء معاوية ، فلا خداع فى شأن واحد من هؤلاء المعدودين ولا انخداع

جاءه عبيد الله بن عمر ففرح به فرحا شديدا وقال لعمرو بن العاص : مايمنع عبد الله أن يجيئنا كما جاءنا أخوه ؟ قال عمرو : انما جاءك عبيد الله لأنه يخشى قصاص ابن أبي طالب منه لقتله الهرمزان بغير قضاء ، وكان عبيد الله قد قتل الهرمزان لأنه شوهد مع أبى لؤلؤة قبل مقتل أبيه وشوهد معه الخنجر الذى حمله أبو لؤلؤة ووجد معه بعد مقتل الفاروق ، فأشار الامام بالقصاص منه وأبى عثمان ذلك لكيلا يقال : قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم . فلما بويع الامام بالخلافة فى الحجاز خرج عبيد الله الى معاوية ونادى مع المنادين بثأر عثمان ، وقال للامام فى بعض المواقف بين الجيشين : الحمد لله الذي جعلك تطلبني بدم الهرمزان وجعلني أطلبك بدم عثمان ..

***

وذهب عقيل بن أبي طالب الى أخيه يطلب منه مالا لسداد ديون عليه فأنظره موعد العطاء له ولسائر أصحاب الأعطية ، فتركه وذهب الى معاوية فقضى له جميع ديونه وقال له بعد أيام : أنا خير لك من أخيك .. قال عقيل : صدقت ! ان أخي آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لي من أخي وأخي خير لنفسك منك !

فكل دهاء يذكر لمعاوية فانما يذكر الى جانبه رفد أو عطاء وولاية يستفيد منها من ينصره ولا ينخدع عنها فى مبادلة النفع بينه وبينه ، ولا جرم كان العطاء عماد هذا الدهاء ، وكان نقش الخاتم الذى تختم به بعد ولايته : « لكل عمل ثواب »

ولهذا أعياه كل الاعياء أمر المخالفين الذين لا تعمل فيهم رقية المال والولاية .. فامتنع عليه عبد الله بن عمر لأنه لم ينخدع بالدرهم والدينار « وانما ينخدع الرجال بهما » كما قال ، وامتنع عليه قيس بن سعد ذلك البطل القوي الأمين الذي حفظ عهده لعلي بن أبي طالب قبل عزله اياه

وبعد عزله ، وظل حافظا لهذا العهد بعد مقتله رضوان الله عليه ومصالحة الحسن لمعاوية وانفضاض الولايات واحدة بعد أخرى عن أعوان بني هاشم ، وقد دانت الدنيا للخليفة الجديد فأرسل الى قيس صحيفة بيضاء موقعة بتوقيعه مختومة بخاتم الخليفة يكتب فيها ما يشاء فلم يكتب فيها الا عهدا بالأمان لأصحابه الذين نصروا عليا والحسن بقيادته ، وجلس الخليفة بالكوفة يتلقى البيعة من مخالفيه القدماء فقال قيس : ان كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية ! فقال له : مه رحمك الله . عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . قال قيس : لقد حرصت أن أفرق بين روحك وجسدك قبل ذلك فأبى الله يا ابن أبى سفيان الا ما أحب قال معاوية : فلا يرد أمر الله ! فأقبل قيس على الناس بوجهه فقال : معشر الناس ! لقد اعتضتم الشر من الخير ، واستبدلتم الذل من العز والكفر من الايمان فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العالمين وقد وليكم الطليق ابن الطليق ، يسومكم الخسف ويسير فيكم بالعسف ، فكيف تجهل ذلك أنفسكم ، أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون ؟! .. فجثا معاوية على ركبتيه ثم أخذ بيده وقال : اقسمت عليك .. ثم صفق على يده ونادى الناس : بايع قيس ! فقال : كذبتم والله ما بايعت ... وضاع صوته بين الصياح والضجيج

ولم يزل أمثال عبد الله بن عمرو وقيس بن سعد بمعزل عن حزب الدولة الجديدة الا من آثر الجهاد فى غزو الأعداء ولم يجد علما للجهاد غير علم الخليفة القائم بتجنيد الجند وتجريد السرايا على أطراف الدولة من بلاد القياصرة والأكاسرة وبطلت كل حيلة من حيل « الثواب » بالمال والولاية مع أمثال هؤلاء القروم الذين كانوا بحق عند المسلمين « بقية الناس »

***

الا أن معاوية كان يصطنع الحيلة التى تجديه فى كفاح خصومه ، وان لم تكن من قبيل الغلبة بقوة العقل وصولة « الشخصية » الطاغية على من دونها فى البأس والمضاء ..

كانت له حيلته التى كررها وأتقنها وبرع فيها واستخدمها مع خصومه فى الدولة من المسلمين وغير المسلمين ، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائم على التفرقة والتخذيل بين خصومه بالقاء الشبهات بينهم واثارة الأحن فيهم ، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوى قرباه

كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوى خطر على وفاق ، وكان التنافس « الفطري » بين ذوي الأخطار مما يعينه على الايقاع بينهم كما كان يحدث بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص بغير تدبير منه أو بتدبير هين لا تخفى خبيئته على الرجلين ، فكان يسمع لكل منهما فى الآخر ويطيع كليهما فى دسه واغرائه ليعلما بعد ذلك بما صنعه كل منهما من الكيد لصاحبه ، فلا يتفقا عليه : وما هما بمتفقين ولا مأرب لهما فى الاتفاق ، بل المأرب الذى يحرصان عليه معا أن يقوم بينهما حجاز يعطيهما ما يسألان ويكيد بكيدهما كما يحبان

ودأبه فى الوقيعة بين أهل بيته كدأبه فى الوقيعة بين النظراء من أعوانه. فلم يكن يطيق أن يتفق بنو أمية من غير بيت أبى سفيان ، ولم يكن ليهدأ ويستريح أو يوقع بين آل عمومته من بنى العاص .. قال ابن الأثير فى أخبار سنة أربع وخمسين : « وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة واستعمل مروان ، وكان سبب ذلك ان معاوية كتب الى سعيد بن العاص أن يهدم دار مروان ويقبض أمواله كلها ليجعلها صافية ويقبض منه فدك وكان وهبها له ، فراجعه سعيد بن العاص فى ذلك فأعاد معاوية الكتاب بذلك فلم يفعل سعيد ، ووضع الكتابين عنده فعزله معاوية وولى مروان وكتب اليه يأمره بقبض أموال سعيد بن العاص وهدم داره ، فأخذ الفعلة وسار الى دار سعيد ليهدمها فقال له سعيد : يا أبا عبد الملك اتهدم داري ؟ قال : نعم . كتب الى أمير المؤمنين ولو كتب اليك فى هدم دارى لفعلت .. فقال : ما كنت لأفعل . قال : بلى والله .. ! قال : كلا .. وقال لغلامه :ائتنى بكتاب معاوية ، فجاءه بالكتابين فلما رآهما مروان قال : كتب اليك فلم تفعل ولم تعلمني ؟ . قال سعيد : ما كنت لأمن عليك

وانما أراد معاوية أن يحرض بيننا ، فقال مروان : انت والله خير مني . وعاد ولم يهدم دار سعيد . وكتب سعيد الى معاوية : العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابتنا أن يضغن بعضنا على بعض .. فوالله لو لم نكن أولاد أب واحد لما جمعنا الله عليه من نصرة أمير المؤمنين الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا لكان حقا على أمير المؤمنين أن يرعى ذلك .. فكتب اليه معاوية يعتذر ويتنصل وانه عائد الى أحسن ما يعهده . وقدم سعيد على معاوية فأثنى عليه خيرا فقال له معاوية : ما باعد بينه وبينك ؟ قال : خافني على شرفه وخفته على شرفه . قال : فماذا له عندك ؟ قال : اسره شاهدا وغائبا » ..

ومضى معاوية على هذه الخطة التى لا تتطلب من صاحبها حظا كبيرا من الحيلة والروية ، ولعلها تناقض الدهاء فيما ينكشف من عللها التى لا تدق على فهم أحد ، فلو انه استطاع أن يجعل من كل رجل فى دولته حزبا منابذا لغيره من رجال الدولة كافة لفعل ، ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح لما وصفه بغير مفرق الجماعات ، ولكن العبرة لقارىء التاريخ فى زنة الأعمال والرجال أن تجد من المؤرخين من يسمي عامه حين انفرد بالدولة عام الجماعة ، لأنه فرّق الأمة شيعا شيعا فلا تعرف كيف تتفق اذا حاولت الاتفاق ، وما لبث أن تركها بعده تختلف فى عهد كل خليفة شيعا شيعا بين ولاة العهود !

وكانت خطة التفرقة عامة عنده لا يقصرها على الخصوم ليضرب بعضهم ببعض ويتقى شر فريق منهم بشر فريق ، بل كان يتوخى هذه الخطة مقدما ومؤخرا وبين كل فريقين وعلى كل حال وفى كل موقف كأنها غرض مقصود لذاته أو كأنها خير « مطلق » لا شرّ فيه ..

وبدأ بهذه الخطة فى السياسة العامة على عهد عثمان فخص المهاجرين بدعوته قبل مرجعه الى الشام وقام بينهم يقول بعد أن دعاه عثمان للمقال : « اما بعد يامعشر المهاجرين وبقية الشورى فاياكم أعني واياكم أريد » ... ثم اتبع ذلك بكلام طويل في معناه يقول فيه : « يا معشر

المهاجرين وولاة هذا الأمر ولاكم الله اياه فأنتم أهله ، وهذان البلدان مكة والمدينة مأوى الحق ومنتهاه وانما ينظر التابعون الى السابقين والبلدان الى البلدين فان استقاموا استقاموا وايم الله الذى لا اله الا هو .. لئن صفقت احدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدين ، وليسلبن أمركم ولينقلن الملك من بين أظهركم ، وما أنتم فى الناس الا كالشامة السوداء فى الثور الأبيض .. »

ويروي بعض المؤرخين انه لما استقر له الأمر وبويع له بالخلافة وجاءه وفد الأنصار أمر أن يدعى كل منهم باسمه الى حضرته بمشورة عمرو بن العاص الذى كره أن يدعى الجمع كله باسم الأنصار ، ولكن عمرو بن العاص لم يكن معه يوحي اليه حين خصَّ المهاجرين بتلك الدعوة قبل أن يتفقا على شيء فى أمر الدولة ، ولم يكن سلطان عمرو هو الذي احتمى به الأخطل حين اجترأ على هجاء الأنصار فقال :

ذهبت قريش بالمكارم كلها والللؤم تحت عمائم الأنصار

فانما اجترأ الشاعر هذه الجرأة بما علم من رضى الخليفة وامانه أن يصيبه مكروه من جراء ذلك الهجاء

ولم تقف خطة التفرقة عند هذه التفرقة بين مكة والمدينة لأنه عمد الى أهل مكة والطائف فى بقعة واحدة ففرّق بينهما حين آثر الثقفيين ــ وهم أهل الطائف ــ بزلفاه، وسنّ لمن بعده سنة هذا الايثار ، فكان من رجال بني أمية المغيرة وزياد والحجاج ومحمد بن القاسم ورهط من الأقربين والصنائع ، وكانت الطائف على عهد معاوية وخلفائه كالحرس على أهل مكة ممن بقي فيها غير الأمويين السفيانيين ، وقد أوقع بين هؤلاء الأمويين كما تقدم فقسمهم بين بني حرب وبني العاص ، وقسم بني العاص بين بيت سعيد وبيت مروان

***

ومن خطط التفرقة التي حسنت لديه في حينها ، وساءت عقباها بعد حين ، وبعد كل حين ــ ذلك النزاع المشئوم بين اليمانية والمضرية ، أو بين

الكنيين والقيسيين على اختلاف النسب والعناوين ، وقد خبط الأكثرون من مؤرخي العصر في تعليله بمختلف العلل ، الا العلة المقصودة التي دبرت في ذلك العصر أسوأ تدبير ، ولعل المدبرين كانوا يحسبونه يومئذ أحسن تدبير ..

فالعصبية في القبائل العربية خليقة لا تهمل في حساب المنازعات والمناظرات في زمن من الأزمان ، ولكنه من السخف أن يقال ان العصبية كانت علة انتصار اليمانية لبني أمية على بني هاشم ، وان اعتزاز الهاشميين بالنبوة هو الذي أحفظ عليهم صدور القبائل من غير المضربين الذين ينتمي اليهم بيت النبوة من بني هاشم

فقد كان بنو هاشم وبنو أمية جميعا من قريش ، وكان اعتزاز بني أمية بالنسبة القرشية أظهر وأجهر من اعتزاز الهاشميين عند قيام دولتهم ـ دولة الأمويين ـ اذ كانت هذه النسبة حجتها من جانب النسب في استحقاق الخلافة وقد كانت اليمن هي القطر الوحيد الذي رحب بوالي الامام علي في أول بيعته ، وكان الأنصار أهل المدينة من حزبه وهم ـ بين أوس وخزرج ـ ينتمون الى اليمانية ، وكانت كندة تنصره وظلت على نصرته ونصرة أبنائه زمنا طويلا بعد قيام الدولة الأموية والدولة العباسية ، وكان أشد أعوان الفاطميين بعد ذلك من اليمانية في المشرق وفي المغرب ولما تلاقى جيش علي وجيش معاوية في وقعة صفين كانت القبيلة العربية الواحدة تقاتل في كلا الجيشين .. قال ابن الأثير : « وسأل علي عن القبائل من أهل الشام فعرف مواقفهم فقال للازد : اكفونا الازد ، وقال لخثعم : اكفونا خثعم ، وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من الشام الا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها الى قبيلة أخرى من الشام ليس بالعراق منهم أحد مثل بجيلة لم يكن بالشام منهم الا القليل صرفهم الى لخم ... »

فالنزاع بين اليمانية والمضرية لم يكن نزاعا على فخر النبوة ولا على فخر الخلافة عند بداءة أمره ، وانما كان نزاعا بين سلاحين أو بين جيشين

افسين فى مكان واحد عدا ما هنالك من النزاع بين الفكرتين . ونحن
ى فى عصرنا ــ وفى كل عصر ــ أمثال هذا التنافس بين الأسلحة كلما
ح ولاة الأمر الى فريق منهم دون فريق ، وقد رأينا هذا التنافس بين
لاح البر وسلاح البحر وسلاح الهواء فى الجمهورية الفضية وكلهم من
نس واحد أو قومية واحدة لأن ولاة الأمر هناك يؤثرون سلاحا على
لاح فى التنازل بينهم على السند الذى يستندون اليه

لقد كانت عصبية النسب عنوانا من عناوين الخلاف بين قبائل اليمن
قبائل مضر فى دولة بنى أمية بالشام ، ولكن هذه العصبية لم تكن لازمة
ل اللزوم لاثارة الخلاف حينما أريد لغرض من أغراض السياسة ، وقد
حدث مثله بين قبائل اليمن وحدث مثله بين قبائل مضر على حسب
الطوارىء والمناسبات ، ولو كان الجند كلهم من قبيلة واحدة وأراد ولى
الأمر أن يثير المنافسة بينهم لما أعياه ذلك كما حدث فى هذا العصر بين
الشعوب الامريكية فى الجنوب على ما قدمناه

ومعاوية كان يريد النزاع بين اليمانية والمضرية ولم تكن له من خطة
ثابتة فيه غير التفرقة بينهم تارة الى هؤلاء وتارة الى هؤلاء ، وقد كان
هو نفسه من المضريين ولكنه كان يبدو فى بعض الأحايين كأنه من أبناء
اليمن عدو لأبناء مضر ، وطابت له هذه السياسة فاستمرأ مرعاهم الوخيم
حتى كانت عقباها ضياع الدولة الأموية كلها بعد جيلين

***

وأبرع ما برع فيه من ألوان الدهاء القاء الشبهة بين خصومه فى زمن
كانت فيه هذه الشبهات من أيسر الأمور ، لكثرة التقلب والتحول فى
الدول والممالك بين أنصار اليوم وخصوم الأمس أو أنصار الأمس
وخصوم اليوم ..

كان اذا أراد أن يستميل أحد البطارقة من دولة الروم فاستعصى عليه
كتب له رسالة مودة وثناء وأنفذها مع رسول يحمل اليه الهدايا والرشى
كأنها جواب على طلب منه يساوم فيه على المصالحة والغدر برؤسائه من

دولة الروم ، ويخرج الرسول العربى من طريق متباعد كأنه يتعمد الروغان من العيون والجواسيس ، فاذا اعتقله الروم — ولابد أن يعتقلوه لأنه يتعرض للاعتقال ويسعى اليه — وقعت الشبهة على البطريق المقصود وتعذر الاطمئنان اليه من قومه بعد ذلك ، وعزلوه وأبعدوه ان لم ينكلوا به أشد النكال ..

وقد احتال بمثل هذه الحيلة على قيس بن سعد حتى أوقع الريبة منه فى نفس الامام وساعدته الحوادث على خلق هذه الريبة كما أجملنا ذلك فى كتابنا عن عبقرية الامام « فشبهاته لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة . فان قيس بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مر بجماعة من حزب معـاوية فأجازوه ولم يحـاربوه وهو فى سبعة نفـر لا يحمونه من بطشهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانيين الهاربين الى مصر من دولة علي فى الحجاز ، ولما بايع المصريون عليا بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون وقالوا لسعد : امهلنا حتى يتبين لنا الأمر ، فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الاسـكندرية .. وأراد الامام أن يسـتوثق من الخصومة بين قيس ومعاوية فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة فلم يفعل وكتب اليه يقول : اننا متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون ، والرأى تركهم ... »

وتعاظمت بعد ذلك الظنون فى زمن صدقت فيه أكثر هذه الظنون . فاما معاوية فلم يكن يكربه الظن ولا الشبه بالظن لأنه يعلم المنفعة التى يعطيها والمنفعة التى يريده أعوانه من أجلها ، واما الامام فلم تكن له عصمة من الظن غير الحيطة وغير التجربة ، ولم تكن للتجربة سابقة مقطوع بها بل كانت كلها مما سينجلي عنه مستقبل مجهول

فهذه الحيلة — حيلة الشبهة — كانت من أنجح الحيل فى سياسة معاوية مع خصومه ، لأنه زمن الشبهات وهى كثيرة فيما ابتلاه أولئك الخصوم ، وقد نجحت ونجعت بفضلين لا بفضل واحـد : أحدهمـا فضل التدبير والآخر فضل الحوادث بغير تدبير

وحيلة أخرى لا نجزم بها ولكننا نشير اليها فى مكانها مما رواه الرواة عن الوسـائل « الخفية » التى توسل بها معـاوية للغلبة على خصومه ومنافسيه ، وحسبت يومئذ من ضروب دهائه ، أو من ضروب كيده وهو مرادف عند عامة القوم لمعنى الدهاء

مات الحسن ومات مالك بن الأشتر الذي ولاه الامام مصر بعد عزل قيس ، ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعوجلوا جميعا بغير علة ظاهرة فسبق الى الناس ظن كاليقين انها غيلة مدبرة ، وان صاحب الغيلة من كان له نفع عاجل بتدبيرها ، وهو معاوية

***

ونقل عن ابن العاص بعد موت الأشتر انه قال : « ان لله جنودا من عسل » ... وكان موت الأشتر بعد شربة من العسل لم تمهله غير ساعات

ونقل الخبر عن دس السم للحسن رضوان الله عليه مؤرخ من الأمويين هو أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني المشهور

قال في كتابه مقاتل الطالبيين : « ارسل معاوية الى ابنة الأشعث اني مزوجك بيزيد ابني على أن تسمّي الحسن بن علي ... وبعث اليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمّت الحسن فسوغها المال ولم يزوجها من يزيد — فخلف عليها رجل من أهل طلحة فأولدها ، فكان اذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيّروهم وقالوا : يا بني مسمّة الأزواج » ..

وقال ابن الكلبي عن أبيه في سبب موت الأشتر : « انه لما سار الأشتر الى مصر أخذ فى طريق الحجاز فقدم المدينة فجاءه مولى لعثمان بن عفان يقال له نافع وأظهر له الود وقال له : انا مولى عمر بن الخطاب . فأدناه الأشتر وقربه ووثق به وولاه أمره ، فلم يزل معه الى عين شمس فلمـا وصل الى عين شمس تلقاه أهل مصر بالهدايا وأسقاه نافع المذكور العسل فمات منه ... وقال ابن سعد انه سم بالعريش ، وقال الصوري صوابه القلزم .. »

وجاء فى أخبار سنة ثمان وثلاثين لابن الأثير : « خرج الأشتر يتجهز الى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه وكان قد طمع فى مصر فعلم أن الأشتر ان قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر فبعث معاوية الى المقدم على أهل الخراج بالقلزم وقال له : ان الأشتر قد ولي مصر فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت . فخرج الجايسات ـــ وفي رواية الطبري الجايستار ـــ حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الأشتر من العراق الى مصر فلما انتهى الى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه اياه فلما شربها مات ... وقام معاوية خطيبا ثم قال : « اما بعد فانه كانت لعلي يمينان فقطعت احداهما بصفين ـــ يعني عمار بن ياسر ـــ وقطعت الأخرى اليوم ـــ يعني الأشتر »

***

واتفق ابن الأثير والطبري على رواية واحـدة في الجملة عن موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد « وكان سبب موته ـــ كما جاء في ابن الأثير ـــ انه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا اليه لما عندهم من آثار أبيه ولغنائه فى بلاد الروم ولشدة بأسه ، فخافه معاوية وخشي منه ، وأمر ابن اثال النصراني أن يحتال فى قتله وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص ، فلما قدم عبد الرحمن من الروم دس له ابن اثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص فوفى له معاوية بما ضمن له ، وقدم خالد بن عبد الرحمن المدينة فجلس يوما الى عروة بن الزبير فقال له عروة : ما فعل ابن اثال ؟ فقام من عنده وسار الى حمص فقتل ابن اثال فحمل الى معاوية فحبسه أياما ثم غرمه ديته ، ورجع خالد الى المدينة فأتى عروة،فقال عروة : ما فعل ابن اثال ؟ فقال : قد كفيتك ابن اثال ولكن ما فعل ابن جرموز ؟ يعني قاتل الزبير . فسكت عروة ! » ..

وسبق الطبري فقال : « ذكر ابن جرير وغيره ان رجلا يقال له ابن اثال

ـ وكان رئيس الذمة ـ سقاه شربة فيها سم فمات ، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ولا يصح ، ورثاه بعضهم فقال :

أبوك الذى قاد الجيوش مغـربا
الى الروم لما أعطت الخرج فارس
وكم من فتى نبَّهته بعد هجعـة
بقرع لجـام وهـو أكتع ناعس
وما يستوي الصفان صف لخالد
وصف عليه من دمشق البرانس

وقد ذكروا انخالد بن عبد الرحمن بنخالد قدم المدينة فقال عروة بن الزبير : « ما فعل ابن اثال ؟ » فسكت . ثم رجع الى حمص فثار على ابن أثال فقتله فقال : « قد كفيتك اياه . ولكن ما فعل ابن جرموز ؟ فسكت عروة . ومحمد بن مسلمة فى قول »

***

وشاعت الشوائع بمثل ذلك عن آخرين من أعداء معاوية ومنافسيه ، يملى للناس فى تصديقها ان هؤلاء الأعداء ماتوا بغير علة موصوفة فى الموعد الذي يبغيه معـاوية وتترتب عليـه سياسته التى كان يرجئها الى مواعدها ... فالحسن يموت قبل بيعة يزيد كي لا يخرج معاوية على شرطه المكتوب للحسن ، ومالك بن الأشتر يموت على أبواب مصر ، وعبد الرحمن بن خالد يموت وهو فى أوج سمعته بين قوم أعجبوا من قبله بأبيه ، وبوشك أن يتجمع حوله النـاقمون من أهل الشـام وأهل الكوفة والحجاز ... وكله مما يذكر ولا يعجل بنفيه ولكنه لا يقوم عليه دليل قاطع ، وأضعف ما فى هذه الروايات تكرار المكافأة باسقاط الخراج وهى مكافأة لا توافق جنايات الغدر والغيلة لأنها تتجدد فى كل موعد خراج ولا يزال السؤال عن سبب اسقاطه متجددا بين العمال وأصحاب الأمر حتى تنكشف المكيدة كلها مع الأيام ، وما كان معاوية بعاجز عن المكافأة على دس السم للأعداء ببذل المال المعجل والمؤجل فى الخفاء ، فلا

يسع المؤرخ أن يقبل هذه التهم جازما ولا أن يرفضها جازما ، ولـكن الشبهات والأقاويل وحـدها تحدثنا بالشيء الكثير عن ظنون النـاس بمعاوية ووسائله الى قضاء ما يبغيه

***

ونحسب أننا فى هذا الفصل قد ألممنا بأفانين الدهاء التى نسبت الى رأس الدولة الأموية ، ويتبين منها جميعا أن دهاءه من قبيل الدهاء الذى يعول على قضاء المصالح وتبادل المنافع،ويتساوى فيه دهاء الطرفين أو يكون الرجحان من قبل الطرف الآخر . فليس دهاء معاوية من قبيل ذلك الدهاء الذي يسوق الأعوان سوقا الى خـدمة مقاصـده بسلطان القدرة العقلية الخارقة وغلبة الاقناع الذي لا برهان فيه على الحقيقة ولكنه ضرب من «التنويم المغناطيسي» تعمل فيه المشيئتان بمشيئة واحدة

وانما استطاع معاوية أن يستهوي الناس اليه بقضاء المصالح لقيامه على ولاية الشام عشرين سنة واستئثاره بأقطارها جميعا على أيام عثمان ابن عفان ، واحتجازه لـمـا شاء من أموالها وخيراتها وولاء أعوانها بغير رقابة عليه بعد أيام الفاروق ..

فالرجل على نصيب متوسط من العقل يملي له طبع مفطور على الاناة لم تتعجله الحوادث قط كما تعجلت منافسيه فى الحجاز والعراق ، وكان ذلك النصيب حسبه من العدة في ذلك النزاع الذى لا سـواء فيه بين المصاعب والعقبات من الجانبين

***

ولو أنه قورن بينه وبين زملائه فى سعة الدهاء لكان آخر الأربعـة صفا،أو لم يكن على اليقين أول الأربعة قبل عمرو بن العاص على الخصوص فان الفارق بينهما كالفارق بين العبقرية والدربة أو بين العقـل المشبع بالقوة الحيوية والعقل الذى قصـاراه من الرأي أن يحـذر ويتربص ويتجنب حيثما كان ...

كان دهاء عمرو سلاح هجوم ودفاع ، وكان دهاء معاوية سلاح دفاع

دائم على أحسن الأحوال ، وكان هو يجهل موازين الرجحان بين الدهاءين ويحسب أن اتقاء العواقب هو كل ما يطلبه الداهية من دهائه ، كأنما الدهاء سلاح يعمل عمل الدرع ولا يعمل عمل السيف أو السهم فى وقت من الأوقات ..

سأل معاوية عمرو بن العاص : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت فى شيء قط الا خرجت منه . قال معاوية : لكنني ما دخلت فى شيء قط وأردت الخروج منه !

ولم يكن عمرو ليقتحم المخاطر على الرغم منه ثم يبحث عن مخارج النجاة منها ، ولكنه كان يقتحم الخطر ويقول غير مرة : « عليكم بكل مزلقة مهلكة » ... لأنه كان على ثقة بدهائه كلما ثاب اليه ، وعلى وفاء لطبيعة الاقدام والاقتحام التى تقترن بالعبقرية ودوافع القوة والحيوية ، وليس من عزم الأمور دهاء لا يندفع بصاحبه فى المضمار ولا يرجى من نفعه قط الا انه لجام

***

ولا نكران — بعد — لدهاء معاوية على هذا التقدير ، وانما قصاراه من هذا التقدير انه لم يضيع الفرصة التى سنحت له وانه صبر فى انتظارها وأطال الصبر غير متعجل لها قبل أوانها . وقد كان ذلك حسبه فيما توخاه

الحِلْم

اشتهر معاوية بعد الدهاء بالحلم ، وأجمع مؤرخوه من مادحيه على وصفه بهاتين الصفتين . وقد أفرد ابن أبى الدنيا وأبو بكر بن عاصم تصنيفا فى حلمه ، وقال قبيصة بن جابر : « صحبت معاوية فما رأيت رجلا أثقل حلما ولا أبطأ جهلا ولا أبعد أناة منه » وردد المؤرخون كلمة قبيصة هذه وزادوا عليها كلمات بمعناه لغيره من عشرائه ورواة أخباره

ولم يفخر معاوية بصفة كما كان يفخر بحلمه . كان يفاخر خاصته بالدهاء بينه وبينهم ، ولكنه لم يفخر قط بالدهاء علانية كما كان يفخر بالحلم والاناة ، ولا غرابة فى ذلك من جميع الوجوه . فما من رجل على نصيب من الدهاء يعلن دهاءه ويفخر به وهو يستطيع أن يخفيه ويموهه بالنصيحة والصراحة . ومن صنع ذلك فهو كالصائد الذى يكشف حبالته للقنيصة وهى خليقة ألا تقع فيها اذا انكشفت لعينها

ووجه آخر من وجوه الجهر بالحلم وتذكير الناس به عند معاوية انه كان حريصا على التحبب الى الناس لأنه ينتزع سلطانه ويعلم أن الناس لا ينطوون على الحب لمن ينتزع السلطان . ان لم يكن نخـوة وانفة فحسدا وغيرة ، أو اعراضا عن الغاصب الى من هو أولي بالسلطان في رأي أصحاب هذا الرأي واقبالا على مستحقه عندهم بغير نزاع

سئل : أي الناس أحب اليك ؟ قال : أشدهم تحبيبا لي الى الناس »

وغني عن القول ان الصفح عن المسيء مع القدرة على البطش به من أقرب الوسائل الى كسب ولائه وكسب ولاء غيره ممن يسمع بالخبر ويحمده ، ولم يكن معاوية ولا شيعته يقصرون فى اذاعة كل خبر فيــه مأثرة من مآثر العفو والاناة والبر بكل مسيء من أولئك الذين كانوا يتطـاولون

عليه بالمساءة فى أول عهده بالملك على الخصوص ، ولم يكن عدد هؤلاء المسيئين بالقليل ..

كان يقول : اني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهل أكبر من حلمي ، وعورة لا أواريها بستري ، واساءة أكثر من احساني

وكان يقول فى مجالسه : « لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت »، وسأله بعضهم : كيف ذلك ؟ فقال : « كنت اذا شدوها أرخيتها واذا أرخوها شددتها » ..

وخطب يوما فقال : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وان لم يكن منكم الا ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي » ..

وحد الحلم عنده ألا يكون فى العدوان والتطاول مساس بملكه وسلطانه : اغلظ له رجل فأكثر فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ فقال : اني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا »

ووجه آخر غير هذه الوجوه كان من دواعي اللهج عند معاوية بفضيلة الحلم قبل غيرها من الفضائل التى كان فى وسعه أن يلهج بها كالعطاء والتدبير وعلو الهمة وما الى ذلك من المناقب التى يسلمها له الأنصار ولا يجحدها كثير من الخصوم

كان الحلم دعاية سياسية فى خصومته مع علي بن أبي طالب بما اشتهر به من فضائل الشجاعة والأمانة والتقوى

كان الحلم صفة من أعز صفات الرئاسة عند الأمة العربية ، وما نحسبها غالت قط بمحمدة من محامد الرئاسة مغالاتها بالحلم وقرينه «الحكمة» ..

وربما مدحوا الكرم والشجاعة فأكثروا فى مديحهما اكثارهم فى القول المعاد من قبيل تحصيل الحاصل ..

فأما الحلم فقد كانوا يغالون فى الثناء عليه لأنه محمدة يطلبونها فى الرؤساء ولا تجرى مجرى الصفات المبذولة لسائر المتصفين ، ولما اختلفه

علي ومعاوية لم يكن أحد ينكر على علي شجاعته وتقواه وسابقته الى الاسلام وقرابته من رسول الله ، فاذا شاء معاوية أن يوازيه بصفة من صفات الرئاسة فتلك هي الحلم دون غيره ، ودعواه فيها أنه هو صاحب الرأي والحلم والحزم ، وان عليا صاحب الشجاعة والصلاح ، وقد شاعت الموازنة بينهما بهذا المعنى على ألسنة الدعاة من حزب معاوية وكاد أن يقبلها الناقدون لعلي من حزبه لاشتداده فى الحق الذى لامثنوية فيه ، وأمسك معاوية عن كل لجاجة فى أمر التقوى والصلاح ليقول كلما نافس عليا وابنه الحسن : ان لم أكن خيركم فأنا خيركم لدنياكم

فالحلم عند معاوية وسيلة من وسائل التحبب الى الناس ، ووسيلة من وسائل الدعاية السياسية يعزز بها حجته ولا يستطيع أن يفخر بصفة غيرها فى مقام المفاضلة بينه وبين الرجل الذى سلم له المنصف والمكابر بفضيلة الشجاعة وفضيلة التقوى

***

لا جرم كان فى أخبار حلمه افراط ومجاوزة للمألوف من أمثاله ، وكان من أهله من يثور لافراطه هذا ويحس الهوان فى عزته لما يحتمله صاحب الأمر كله فى دولتهم من الجرأة عليه وعليهم ، وكان يزيد — ابنه وولي عهده — أشد هؤلاء الثائرين سخطا على أبيه ، يقول له كلما راجعه : « أخاف أن يعد ذلك منك ضعفا وجبنا » .. فيقول له : « أي بني ! انه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة . فامض لشأنك ودعني ورأيي »

وقد يعزى غضب يزيد من ذلك الحلم « المفرط » الى سورة الشباب وحب الاستطالة بالعزة والسؤدد على عادة أترابه وأنداده ، ولكن الرأى بين آل بيته « المحنكين » أنه كان يبالغ فى احتمال الأذى والصبر على المساءة ، وكان رجل فى حنكة عبد الملك بن مروان يسمى ذلك منه دهانا كما قال فى بعض خطبه : « ما أنا بالخليفة المستضعف يعنى عثمان ، وما أنا بالخليفة المداهن يعنى معاوية ، وما أنا بالخليفة المأفون — يعنى يزيد »

ومما يدل على أن الفخر بالحلم دخل فى دعاية الخصومة بين معاوية وعلي خاصة أننا لا نسمع به بعد تأسيس الدولة ولا يفخر به أحـد من الأمويين غير الفـرع المؤسس لدولتهم فى ابان النزاع الأول على الخلافة ..

فالمعلوم ان بنى أمية فرعان : فرع حرب وفرع أبى العاص ، والى حرب ينتمى أبو سفيان وابنه معاوية ، والى أبى العاص ينتمى مروان بن الحكم ومن خلفه من ذريته ، وفى مقدمتهم ابنه عبد الملك وحفيده سليمان ابن عبد الملك ..

***

فالمفاخرة بالحلم انما كانت تجرى على لسان معاوية ولم تجـر بعده على لسان المروانيين حين تأسست الدولة الأموية واستغنى القائمون بها عن مقابلة فضائل علي بن أبى طالب بفضائل « سياسية » يرجحون بها أنفسهم فى ميزان الخصومة

كان معاوية يقول : اذا لم يكن الأموي حليما فقد فارق أصله وخالف آباءه ..

وكان يقول : « يابنى أمية ! فارقوا قريشا بالحلم . فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتما وأوسعه حلما فأرجع وهو لى صديق ، ان استنجدته أنجدنى وأثور به فيثور معى ، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ولا زاده الا كرما »

وكان المتقربون اليه يذكرونه حلم أبى سفيان اذا أنكروا منه سورة النقمة والغضب . وقيل له بعد مقتل حجر بن عدى : أين غاب عنكم حلم أبى سفيان ؟ فكان يقول : حيث غاب عنى حلماء قومى وحملنى ابن سمية فاحتملت . وقال للسيدة عائشة حين سألته مثل هذا السؤال : لم يـكن معى رشيد ..

ولا شك ان معاوية قد أقام فخره بالحلم على سمعة قديمة فى بيته بين بيوت بنى أمية ، لأن هذا الفخر لا يخلق بين يوم وليلة فى البلاد العربية

التى تذكر وراثاتها وتعيدها ولا تخاطب بها من يجهلها ، ومن المشــهور أن حرب بن أمية أصلح بين قريش وهوازن فى حرب الفجـار الثـانية بعد اقتتال يسير ، وأن ابنه سفيان كان يتأنى ولا يتهجم فى خصومات الجاهلية وخصومات الاسلام ، ولا يمتنع مع هذا كله أن يكون الفخر بالحلم من دعايته السياسية عند تأسيس الدولة والحاجة اليه فى المفاضلة بين المتنازعين بمناقب الحكم والرئاسة ، وقد سكت عنه الأمويون على عهد الفرع الآخر منهم ــ وهو فرع المروانية ــ لأنهم لم يحتاجوا اليه فى منازعاتهم ، بل كان منهم من يفخر بالفتك ويسرع الى الغضب ويرهب المخالفين له بسرعة البادرة اليه

***

والوقائع ــ بعد ــ أصدق من اطراء المادح وغمز القادح ، فانهـا قد تمتزج بالكذب عمدا أو على غير عمد ، ولكنها فى كثير من الأحــوال تنقض كلام قائلها اذا عرضت على التمحيص والتحليل فيسوقها للمــدح وهى منطوية على دخيلة تبطل مديحه المقصود ، أو يسوقها للقدح وما تنطوى عليه آية من آيات الثناء والمديح

والوقائع التى رويت عن حلم معاوية متواترة متكررة ، تتفق فيهـا الكلمات أحيانا ويختلف فيها القائلون والرواة ، أو يتفق فيهـا هؤلاء جميعا بغير اختلاف كبير ، وهكذا معظم الوقائع التى رويت عن أعـلام ذلك الجيل وما بعده ، فلابد فيها من حساب للمبالغة وحساب للترجيح والتصحيح بالمقارنة والمضاهاة

وليست كل هذه الوقائع ــ مع ذلك ــ بصالحة للاستدلال بها على حلم معاوية ولو بعــد ثبوتها باختلاف أو بغير اختلاف

فمنها ماتعرض فيه للاساءة مستدعيا لها مستعدا لها فى مجال التبسط والمزاح ، والعالم الاسلامى لم يتعود بعد طغيان الملك ولم يتعود ملوكه أن يسوموا الناس الصبر على ما يكرهون ولا يترقبوا منهم رد الكلام بمثله فى كل مقام ..

قدم جارية بن قدامة السعدى عليه فقال : من أنت ؟ قال : جارية بن قدامة . قال : وما عسيت أن تكون ؟ هل أنت الا نحلة ؟ قال : لا قل . فانما شبهتنى بها حامية اللسعة حلوة البصاق . ووالله ما معاوية الا كلبة تعاوى الكلاب وما أمية الا تصغير أمة !

ورويت هذه القصة على رواية أخرى ، فقيل ان معاوية بادره قائلا : « أنت الساعى مع على بن أبى طالب والموقد النار فى شعلل — جمع شعلة — تجوس قرى عربية لتسفك دماءهم ؟ فقال جارية : يا معاوية . دع عنك عليا فما أبغضنا عليا منذ أحببناه ولا غششناه منذ صحبناه . فقال له معاوية : ويحك يا جارية ! ماكان أهونك على أهلك اذ سموك جارية لا أم لك ! . قال جارية : أم ما ولدتنى . ان قوائم السيوف التى لقيناك بها بصفين فى أيدينا .. انك لم تملكنا قسرة ولم تفتتحنا عنوة ، ولكن أعطيتنا عهودا ومواثيق فان وفيت لنا وفينا وان ترغب الى غير ذلك، فقد تركنا وراءنا رجالا مدادا وأذرعا شدادا وأسنة حدادا . فان بسطت الينا فترا من غدر دلفنا اليك بباع من ختر ... قال معاوية : لا أكثر الله فى الناس من أمثالك

وما نظن معاوية كان مخاطبا بذلك الخطاب رجلا يوصف فى عصرنا هذا بأنه من « آكلي النار » ثم لا يترقب منه جوابا كجوابه ، ولعله كان يرضيه أن يسمع منه تسليما واستكانة فيطمئن الى غلبته ورسوخ سلطانه ولكنه — ولا ريب — لم يغب عن ذهنه أن جارية أهل لأن يسمعه ماسمع وان يطرفه بتلك الطرافة اللاذعة التى لا يأباها كثير من الناس ، وهى طرافة الجواب السريع المتوقع ممن يحسن رد الكلام بمثله فى هذا المقام ..

ومن الجواب المستدعى — أو المستثار — قول خريم بن فاتك وقد دخل على معاوية مشمرا مئزره فقال له : « لو كانت هاتان الساقان لامرأة ؟ » وكان معاوية عظيم الاليتين يهجى فيقال فيه انه « الجاحظ

العين العظيم الحاوية » فما عتم خريم ان أجابه قائلا : « فى مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين » ! ...

وأشبه بهذا المقام حـــواره مع الزرقاء بنت عدى خطيبة صفين حين ذكرت فى مجلسه بعد سنوات فارسل اليها يستدعيها . فقالت للرسول : ان كان أمير المؤمنين جعل الخيار لى فانى لا أذهب ، فلما شـــدوا عليها فى الذهاب دخلت المجلس وفيه عتبة بن أبى سفيان ، والوليد ، وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص ، فهش لها ورحب بها ، ثم سألها : أتدرين فيم بعثت اليك ؟ ..

قالت : وانَّى لى بعلم مالم أعلم .. لا يعلم الغيب الا الله ..

فسكت هنيهة ثم قال : ألست أنت الراكبة الجمل الأحمر فى صـــفين تحضين الناس بين الصفين على القتال ؟

قالت : نعم !..

قال : فما حملك على ذلك ؟

قالت : يا أمير المؤمنين . مات الرأس وبتر الذنب ولن يعود ما ذهب والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر

قال : صدقت . أتحفظين كلامك يومئذ ؟

قالت : لا والله : أنسيته

قال : لكنى أحفظه ، ولله أبوكِ حين تقولين : « أيها الناس ! ارعووا وأرجعوا . انكم أصبحتم فى فتنة ، غشيتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء ، صماء ، بكماء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تسلس لقائدها ، ان المصباح لايضيء فى الشمس والكواكب لا تنير مع القمر ، ولا يقطع الحديد الا الحديد

واسترسل فى قول الرواة يعيد عليها كلامها الى أن قال :

ــ والله يا زرقاء .. لقد شركت عليا فى كل دم سفكه

قالت : أحسن الله بشارتك وادام سلامتك ، فمثلك بشر بخير وسر جليسه ..

قال : أو يسرك ذلك ؟

قالت : نعم

قال معاوية : والله لوفاؤكم بعد موته أعجب الىّ من حبكم فى حياته اذكرى حاجتك ..

قالت : يا أمير المؤمنين آليت على نفسى لا أسألن أميرا أعنت عليه أبدا ولكنه على هذا أجزل لها العطاء وأرضاها

وجاءته بكارة الهلالية بالمدينة ، وقد أسنت وغشى بصرها ، فسلمت وجلست ، فرد عليها السلام وقال : كيف أنت يا خالة ؟

فقالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال : غيَّرك الدهر . قالت : كذلك هو ذو غير ، ومن عاش كبر ، ومن مات قبر

قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة ياأمير المؤمنين :

يا زيد دونك فاحتضر من دارنا
سيفا حساما فى التراب دفينا

قد كنت أذخره ليوم كريهة
فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وقال مروان : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا
هيهات ! ذاك وان أراد بعيد

منتك نفسك فى الخلاء ضلالة
أغراك عمرو — للشقا — وسعيد

وقال سعيد بن العاص : هى والله القائلة :

فالله أخر مدتى فتطاولت
حتى رأيت من الزمان عجائبا

فى كل يوم للزمان خطيبهم
بين الجميع لآل أحمد عاتبا

فقالت بكارة : نبحتنى كلابك يا أمير المؤمين .. وأنا والله قائلة ماقالوا ،

لا أدفع ذلك بتكذيب ، وماخفى عليك منى أكثر ، فامض لشأنك ، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين ...

فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك . اذكرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا ...

ويتمّ الرواة روايتهم فيقولون انه قضى حوائجها وردّها الى بلدها ..

***

ولا مخالفة للمعهود فى ازدلاف المزدلفين لصاحب الأمر بالوقوع فى خصمه بمحضر ممن يكره ذلك منْ خاصة أهله . فان نجا المزدلف بزلفاه فقد رضى وأرضى ، وان أصيب كما أصاب فليست كل كلمة يزجيها الملقى فى مجلس الأمير مستحقة من ذلك الأمير أن يشتريها بالثمن الذى يعنته ولا تطيقه دولته فى مطلعها . وقد ازدلف اليه الكثيرون فسلموا ، وازدلف اليه غيرهم فأصيبوا بحق لايمترى فيه عربيان يؤمنان بحق الجواب كما يؤمن به سائر العرب ، ولا يمترى فيه مسلمان يؤمنان بالحق حيث كان ، وأظهره رد العدوان فى غير داعية للعدوان

كان عنده زيد بن عمر بن الخطاب ، وأمه بنت على أم كلثوم . فنال بسر بن ارطأة من الامام ، فما أمهله زيد أن قام اليه فعلاه بالعصا وشج رأسه . فلم يزد معاوية على أن قال لزيد : عمدت الى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربته ؟ ثم التفت الى بسر فقال : تشتم عليا على رؤوس الناس وهو جده وابن الفاروق ثم تراه يصبر على ذلك

وكل أولئك شبيه أن يكون : بسر بن أرطاة قاتل طفلين باليمن لعبيد الله ابن عباس ينال من على فى حضرة معاوية ، وزيد بن الفاروق لا يشبه أباه ان صبر على ثلب جده فى مكان حيث كان ، ومعاوية يرضى عن سفاهة بسر ان مضت فى سبيلها ، ولكنه لا يبطش بزيد ان غضب لجده وأصاب السفيه بجريرة سفاهته ، ولا تساوى تلك السفاهة ان يشتريها بالنكال الذى تعود عليه اللائمة فيه ولا تعود عليه منه زيادة فى ملكه ، وكل أولئك — كما أسلفنا — شبيه أن يكون ، فلا يحسبه أحد فى ذلك العصر من حلم

معاوية ، بل يحسبه من جبن زيد ان لم يصنع ماصنع بابن أرطاة

وان الأشبه بالصدق فى جملة تلك الروايات أن معاوية كان يحب هذا الملق ويحب هـذه الاستثارة لأنها تمتعه بذكرى الشدائد التى تخطاها بعد فوات الغاشية ، وتريحه الى لقاء خصومه وهم فى كنفه ينظرون اليه فى مستقر نجاحه وظفره ، ولا يضيرونه بقولة يقولونها لا تحول بينه وبين ملكه كما قال ..

وغير بعيد أنه كان يترك جلساءه يتحرشون بذوى اللسن من العلويين ليضحك مما ينالهم كما يفعل ذوو السلطان فى كل زمن وكل أمة ، فربما كانت سخريتهم بالانصار أمتع لهم من صد الخصوم ، وقد يطلقـون بعضهم على بعض ليسخروا منهم جميعا ان لم يكن لهم خصوم يعرضونهم للسخرية طائعين أو كارهين

***

وقد اجتمع من سجال بنى هاشم وخصومهم فى مجلسه ماينعقد به سجل خاص فى مأثورات الحوار فى كل مقام ، ويصحح وقوعه فى رأينا أنه لو حدث لما أمكن حدوثه على غير ذلك النمط الذى تناقله الرواة

أناس من ذوى السلطان المحدث يعلمون هوان أقدارهم مع بنى هاشم وآل النبى وصفوة قريش ، ويلذ لهم أن ينعموا بالسلطان وأن «يجتروا» تلك النعمة حيثما وسعهم اجترارها فى حضرة وليهم وعلى مسـمع من السادة الأعلين الذين غلبوا على ذلك السلطان ، وأن ولي الأمر نفسـه ليحب ذلك ولكنه يعلم أنه مركب غير مأمون ، وأن الموتورين اذا سمعوا مايكرهون فردوه بمثله فما فى وسعه أن يواجه العالم الاسلامى كل يوم بشهيد من آل البيت ... فسبيله أن يصطنع المخالفة لجلسائه وأن يحذرهم مغبة اللهو بهذه الملهاة ولا أمان فيها من لسن القوم وأنفتهم التى لم تخذلهم قط فى مقام المناظرة والتحدى من زمن قديم . فان أصـيب جلساؤه فعليهم وزر عملهم وليس لهم أن يطالبوه بالاقتصاص لهم من

أمر قد اختاروه على خلاف رأيه ، وان سلم أولئك الجلساء فقد شفوا صدره من أولئك الموتورين

وتكاد القصص مع بنى هاشم فى مجلس معاوية تجرى كلها على وتيرة واحدة : رجل من آل البيت يدعى الى المجلس أو يأتى اليه فى أمر من أموره فيغرى به جليس من الحاشية يتحرش به ويستثيره فيجاب بما هو أهله ، ويتغاضب معاوية على الجليس فيلومه اذا بلغ الجدال والمحال فصل المقال ، وما نرى أن الملهاة كلها كانت مدبرة لكى تنتهى الى خاتمة أخطر من هذه الخاتمة . وماذا عليهم اذا استطال الموتورون بالمقال وهم يستطيلون بالسلطان ؟

***

الا أن حديثا واحدا من أحاديث بنى هاشم يخالف هذا النمط ولا يستقيم مع سائر هذه الأحاديث . فلم يكن البادئون به من جلساء معاوية ولا من آل البيت ، ولكن البادىء به معاوية نفسه على نحو لا يشبه طريقته المأثورة من التقية والمداراة ، وليس فيه نفع له فى شأن من شئون الملك أو خاصة من خواص أمره تستوجب ذلك الحديث

قيل انه تحدث الى ابن عباس فقال له : ان فى نفسى منكم لحزازات يابنى هاشم . وانى لخليق أن أدرك فيكم الثار وأنفى العار . فان دماءنا قبلكم وظلامتنا فيكم ، فقال له ابن عباس : والله ان رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أسدا مخدرة وأفاعى مطرقة ، لايفثأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ويضربون قدما قدما من ناوأهم ...

الى أن قال فى رواية الرواة : « فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك ، وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك ، ولولا طغام من أهل الشام وقوك بأنفسهم وبذلوا دونك مهجهم ... ورفعوا المصاحف مستجيرين بها وعائذين بعصمتها لكنت شلوا مطروحا بالعراء .. وما أقول هذا لأصرفك عن عزيمتك ولا لازيلك عن معقود نيتك ، ولكنها

الرحم تعطف عليك ، والأواصر توجب صرف النصيحة اليك » . فقال معاوية : لله درك يا ابن عباس . ما تكشفت الأيام منك الا عن سيف صقيل ورأي أصيل . والله لو لم يلد بنو هاشم غيرك لما نقص عددهم ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثرهم

وان دواعي الشك فى مثل هذا الحديث لكثير ، لولا أن التلفيق فيه أعسر من أن يتاح لكل راوية يضع الكلام على كل لسان ، ولا يبالى أين موضعه من القائل والمجيب

فان كان معاوية قائلا مثل ذلك المقال لأحد من بنى هاشم فانما يقوله لعبد الله بن عباس دون غيره ، فانه حديث داهية يسبر به غور داهية يقارنه من بيت خصومه ، وانه مع ذلك قرين تجمعه آصرة القرابة بآل على ولا تجمعه بهم آصرة المودة والموافقة جد الموافقة على الوجهة . وقد تخلى ابن عباس عن ولاية ابن أبى طالب ووقعت بينهما الجفوة التى لم تصلحها حوادث الأيام بعد ذلك . ولا منافسة بين على وأبنائه فى حياته ولا بعد مماته ، وانما المنافسة بينه وبين أعمامه وبنى عمومته : انما المنافسة بين اثنين أحدهما ابن عم للنبى هو أبو طالب والآخر ابن عم للنبى هو العباس . فهاهنا على كل حال طلع يستطلع بتلف الكلمة المفاجئة ، ولا بعد مماته ، وانما المنافسة بينه وبين أعمامه وبنى عمومته : انما التحذير والتنبيه ..

***

وأى فائدة كبرى كان يفيدها معاوية لو سمع من ابن عباس كلمة تفتح الباب للتفرقة بينه وبين سائر الهاشميين العلويين ؟ أى فائدة كان يفيدها لو رأى من دهاء ابن عباس أنه يمهد لنفسه عند السلطان الجديد ولا يزيد على التشفع لغيره من سائر أهل البيت ؟

ان غرابة هذه القصة هى التى ترجحها وتضعف الشك فيها ، فانها ان وقعت لن تقع الا على غرابتها ..

انها غريبة من معاوية الا أن تكون مقصودة لغير ظاهرها مع رجل له

ظاهر وباطن يستطلع بهذه المفاجئة ولا يستطلع بغيرها ، وقد يبدو منه ماتنكشف به جلية الموقف بينه وبين سائر بنى هاشم ، وكل بنى هاشم غير عبد الله بن عباس فظاهرهم وباطنهم لايختلفان اذا سمعوا مثل ذلك النذير ..

هذا أو تكون نفثة من نفثات الكظم تنطلق منه حيث يقدر الأمان مع رجل يخفي باللسان مالا يضمره الجنان

وأمثال هذه الردود الخشنة جميعا لم تكن فى ذلك العصر مما يستكثر فى مناسباتها ، وقد سمعها معاوية ـ أو سمعها جلساؤه معه ـ متوقعة مستثارة ، ولم يتعود الناس يومئذ أبهة الملك وطاعة العبيد للسادة ، ولم يتعود الأمير كذلك أن يسوم الناس سكوتا فى موضع القول ، واغضاء فى موضع الأنفة ، وانما كان الأمير خليفة يتشبه بالخلفاء الراشدين فى حق الطاعة ، ولم يعد أحد من هؤلاء الخلفاء أن يخاطب انسانا بما يسوءه ثم يستكثر عليه أن يجيبه بمثل خطابه ، فهذه « هرقلية » لم يتعودها الرعاة ولا الرعايا ، ولم يكن فى طاقة معاوية أن يروّض رعاياه عليها دفعة واحدة . فاذا تمهل فيها آونة بعد آونة فانما يكون التمهيل بمثل ذلك الصبر على كره أو على اختيار

***

ومن الوقائع التى رويت عنه وقائع يلتبس فيها الحلم ببطء الغضب وطول الروية والأناة ، ومنها مايتلقى فيه الاساءة أو الوعيد على البعد ويتسع له الوقت قبل الاجابة عنها بما يروى فيه النظر ويرتضيه ..

عدا عبيد لمعاوية على أرض ابن الزبير فكتب اليه ابن الزبير : « أما بعد يا معاوية . ان لم تمنع عبيدك من دخول أرضى والا كان لى ولك شأن » ..

وقيل ان معاوية أطلع ابنه يزيد على كتاب ابن الزبير وسأله : ما ترى ؟ فقال له يزيد : لتنفذن اليه جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه . فقال : بل عندى يابنى خير من ذلك ، وكتب الى ابن الزبير :

« وقفت على كتابك يا ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساءنى والله ماساءك ، والدنيا هينة عندى فى جنب رضاك ، وقد كتبت على نفسى رقيما بالأرض والعبيد وأشهدت على فيه ، ولتضف الأرض الى أرضك والعبيد الى عبيدك والسلام »

فجاءه الجواب من ابن الزبير يقول فيه : « وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فلا عدم الرأى الذى أحله من قريش هـذا المحل والسلام » ..

وأطلع معاوية ابنه على الكتاب الثانى كما أطلعه على الكتاب الأول فاسفر وجهه ، وأبوه يقول : اذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء

ومن الاساءات مالا خطر له لأنه من غير ذى شأن كشأن ابن الزبير ، ولكنه يغضب العربى لأنه يمس الحرمات كتشبيب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية اذ قال :

رمـل هـل تذكرين يوم غـزال
اذ قطعنـا مسـيرنا بالتمـني !
اذ تقولين : عمـرك الله هل شـ
ىء ، وان جل ، سوف يسليك عني ؟

فغضب يزيد وأغرى كعب بن جعيل بهجاء الانصار فأبى ودله على الاخطل فنظم قصيدته التى يقول منها :

ذهبت قريش بالمكارم كلهـا
واللؤم تحت عمائم الانصـار

وأوشكت أن تكون فتنة ، اذ دخل النعمان بن بشير على معاوية محنقا وحسر عن رأسه وهو يقول له : هل ترى يا معاوية لؤما ؟.. فقال : بل كرما وخيرا ، فما بالك ؟ .. فأعاد عليه أبيات الاخطل وتوعده بأبيـات يقول منها :

معـاوى الا تعطنـا الحق تعترف
لحى الازد مشـدودا عليهـا العمائم

أيشـتمنا عبـد الاراقم ضـلة
وماذا الذى يجـدى عليـك الاراقم
فمـا لى ثأر دون قطع لسـانه
فدونك من يرضيـه عنـك الدراهم

وتتم القصة بما قيل عن طلب معاوية للأخطل وتهديده اياه بقطع لسانه لولا شفاعة يزيد الذى أغراه بالهجاء

وفى رواية من هـذه الروايات الكثيرة ان التشبيب انما كان بأخت معاوية وان يزيد دخل على أبيه فذكر له قول عبد الرحمن بن حسان :

طال ليلى وبت كالمجنون   ومللت الثواء فى جيرون

فقال له : وما علينا يابنى من طول ليله وحزنه أبعده الله ...

قال يزيد : وانه ليقول :

فلذاك اغتربت بالشـام حتى
ظن أهلى مرجمـات الظنون

فقال أبوه : وما علينا من ظن أهله ؟

قال يزيد : وانه ليقول :

هى زهـراء مثـل لؤلؤة الغو
اص ميـزت من جـوهر مكنـون

قال معاوية : صدق يابنى . هى كذاك

قال يزيد : وانه ليقول :

ثم خاصرتها الى القبـة الخضر
اء تمشى فى مرمر مسـنون
عن يسارى اذا دخلت اليهـا
واذا ما تركتهـا عن يمينى

فضحك معاوية وقال : ولا كل ذاك .. ثم حذر ابنه قائلا : ليس يجب القتل فى هذا ولكننا نكفه بالصلة ..

وزعموا فى بعض روايات القصتين ان معاوية أرسل فى طلب الشـاعر

وأبلغه ان هندا أخت رملة تعتب عليه لأنه لا يسويها بأختها ، وأراد بذلك أن يشبب الشاعر بهند فيعلم الناس انه كاذب فى كل ما نظم ، وانها أقاويل الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون

والثابت من كل هذا الحديث بيت الاخطل فى هجاء الانصار ، وربما ثبت مثله هجاء الاراقم قوم الاخطل من تغلب ، فاذا كان قد دخل فى الأمر تشبيب بأخت يزيد أو بعمته فربما هون خطره غضب الانصار وغضب المسلمين جميعا ان يهجو أنصار النبى شاعر من غير المسلمين ، ولو ان المسألة خلصت من هذا الحرج لما جاز قتل الشاعر من جراء لغوه كما قال معاوية ، فما كان سفك الدم لمثل هذا القول بالأمر المستباح فى صدر الاسلام ، وقد مضى بعد هذا الجيل أجيال على سنة الملك العضوض ولم يخطر للمهدى فى دولة بنى العباس ان يقتل بشارا وهو القائل فى أبى جعفر المنصور :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم
ولا سالم عما قليل بسالم
كأنك لم تسمع بقتل متوج
عظيتم ولم تسمع بفتك الأعاجم

***

بل هو الذى أفحش فى هجاء المهدى وهجاء نساء بيته وذهب يخبط بالمهايجة والتحريض بين بنى أمية وبنى العباس ، وما استباح المهدى عقابه الا بتهمة الزندقة والالحاد ، وما أمر الا بأن يضرب ضرب التلف ليقال فى ذلك انه انما أريد به الضرب فمات

وهذا بشار وذاك عبد الرحمن بن حسان

ففى وزن الرجال وتمحيص الأخلاق وفهم الطبيعة الانسانية ــ أى فهم الانسان ــ لا جدوى من التعويل على ألفاظ الصفات ولا بد من الرجوع الى الوقائع وما لها من الأثر الطبيعى فى الضمير وما ينم عليه هذا الأثر من خليقة نفسية أو ملكة عقلية

وهذه الوقائع التى رويت عن معاوية تبدى لنا منه صفة لاشك فيها وهى طول الاناة وبطء الغضب ، وليست هى بالصفة التى ترادف الحلم كما يفهم لأول وهلة . اذ كثيرا ما يكون بطء الغضب شيئا « سلبيا » يدل على امتناع الغضب طبعا أو قلة الاستعداد له فى الخلقة ، ولا تكون الفضيلة أبدا « شيئا سلبيا » قوامه غياب أثر من الآثار النفسية وكفى

فليس معنى الشجاعة ــ مثلا ــ تجرد الطبع من الشعور بالخوف ، لأن الانسان الذى يقدم على الخطر وهو لا يشعر به ينـدفع اندفاع الجماد ولا فضل له فى اندفاع لا يكلفه الغلبـة على خوف يسـاوره فى ضميره ..

وليس معنى الكرم تجرد الطبع من الشعور بقيمة المال أو قيمة المنحة المبذولة ، لأن من يتصرّف فى شىء لا قيمة له عنـده كمن يتصرّف فى التراب والهواء وما اليهما من مبذول العطاء

وليس معنى العفة تجرد الطبع من الشعور بالشهوات ، لأن من لا شتهى لا يطلب ولا يقاوم الاغراء ولا تحسب له عفة

وليس معنى الحلم تجرد الطبع من الشعور بالغضب ، لأن التجرد من هذا الشعور قد يأتى من بلادة فى الطبع وركود فى حركة النفس ومقابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال

وانما الحلم أن يغضب الانسان وأن يحكم غضبه بارادته ايثارا لأمر يفوق الغضب فى قيم الأخلاق ..

***

فمن الحلم أن يأنف الانسـان من الاستسلام للغضب ، لأنه يرتفع بكرامته أن تصيبها اساءة المسىء

ومن الحلم أن يصفح الانسان عن الاساءة ايثـارا للخير وعطفا على المسىء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يصنع فى حق أبيه

ومن الحلم أن يقمع الانسان غضبه لأنه يملك زمام نفسه ويوازن بين العواقب فيختار أسلمها للناس عامة ، وان لم يكن أسلمها له فى ذات

شأنه وشئون ذريه ..

ولا بد من التفرقة هنـا بين الحلم ايثـارا للنفع الانسانى أو النفع القومى ، وبين الحلم ايثارا للسلامة وعملا بطبيعة «الأنانية» وحب الذات

فليس من الحلم أن يضرب الضعيف فلا يرد الضربة بمثلها لأنه يعلم انه سيتلقى أضعافها ممن هو أقدر منه وأقوى على ايذائه ، وانما يقال عن هذا انه جبن أو رضى من المعتدى عليه بأهون الشرين

ولا يكون الحلم أبدا عجزا عن مجاراة الغضب أو امتناعا للشعور به ، لأن الفضيلة لا تقوم على عجز أو امتناع ، ولكنها تقوم على ارادة تملك الاختيار بين الخطتين ..

وجملة القول فى هذه الصفة ان الحليم هو الذى يملك الغضب ولا يملكه الغضب ، وكلما اشتد الغضب واشتدت القدرة عليه كان ذلك أبين عن الحلم وأدل عليه ، وكلما ارتفع السبب الذى من أجله يتغلب الحليم على غضبه كان ذلك أرفع لقدره وأرجح لوزنه فى ميزان الفضيلة ، فمن يحسم الغضب حرصا على منافع الناس أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب حرصا على منافعه العاجلة أو الآجلة ، ومن يحسم الغضب لأنه يشمل النـاس بحبه وعطفه أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب لأنه يحب نفسه ويقدم حبها على كل حب لغيره

***

ومن كلام حكماء العرب وبلغـائهم نستشف فطنتهم لحقيقة هـذه الفضيـلة ، فهى فضيـلة المريد المختار المالك لزمام الأمرين كما قال ابن خليفة مولى قيس بن ثعلبة يمدح قوما من آل شيبان :

عليـهم وقار الحـلم حتى كأنما
وليـدهم من أجـل هيبتـه كهـل

ان استجهـلوا لم يعزب الحـلم عنهم
وان آثروا أن يجهـلوا عظم الجهـل

أو كما قال النابغة الجعدى :

ولا خـــير فى حلم اذا لم يكن له
بوادر تحمى صـــــفوه أن يكدرا
ولا خـــير فى جهل اذا لم يكن له
حليـــم متى ما أورد الأمر أصـــدرا

ومن كلام الاحنف بن قيس ـ أحد مشاهيرهم بالحلم ـ « رب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه » ...

وكان من حلمه انه يصفح عن المسيء وان ظن به الذل ويقول : « ما أحب ان لى بنصيبى من الذل حمر النعم » .. فلما قيل له : كيف وانت أعز العرب ؟.. قال : « ان الناس يرون الحلم ذلا » ...

وهو القائل : « لا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان » ..

وسألوه : ما الحلم ؟.. فقال : « قول ان لم يكن فعل ، وصمت ان ضر قول » ..

***

وروى العقد الفريد ان هشاما بن عبد الملك سأل خالد بن صفوان : بمَ بلغ فيكم الأحنف مابلغ ؟.. فقال : ان شئت أخبرتك بخلة ، وان شئت بخلتين ، وان شئت بثلاث ..

قال : فما الخلة ؟

قال : كان أقوى الناس على نفسه

ثم قال عن الخلتين إنه كان موقى الشر ملقى الخير ، وعن الثلاث انه كان لا يجهل ولا يبغى ولا يبخل

وأســتاذ الاحنف فى الحلم قيس بن عاصم المنقرى كان مشــهورا بالاقدام كشهرته بالحلم والاغضاء عن الذنب كبيره وصغيره ، وبلغ من حلمه انه صفح عن ابن أخيه الذى قتل ابنه ، وقد أوثقه من ود أن يبطش به لساعته فما زاد على أن قال له مؤنبا : « بئس ما فعلت . نقصت عددك وخنت عشيرتك وأسقطت مروءتك وأشمت عدوك وأسأت قومك ... وانت الذى كنا نرجو لعظائم الأمور » ثم واسى زوجته أم القتيل وأجزل

لها الدية من ماله ، وحسم بذلك شرا مستطيرا فى القبيلة لا يجعله عند أخطر من شر الشكل الا الحلم الراجح والقلب الكبير والنظر البعيد

***

ويمر بنا مثل من الأمثلة الصالحة لتقويم الروايات ورواتها بصدد الأخبار التى نقلها صاحب العقد الفريد عن الحلم والحلماء ، ومنهم الاحنف، ومعاوية ..

فابن عبد ربه ينقل لنا ان الاحنف سئل : من أحلم .. أنت أم معاوية ؟ فقال : تالله ما رأيت أجهل منكم . ان معاوية يقدر فيحلم وأنا أحلم ولا أقدر ، فكيف أقاس عليه أو أدانيه ؟

فاذا سمع السامع المتعجل هذا فحرى أن يتقرر لديه رجحان معاوية فى الحلم بشهادة الرجل الذى يضرب به المثل فى حلمه ، وأى شهادة عسى ان تكون أصدق من هذه الشهادة .. !

وما هى الا معاودة لحظة فى السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم ان السؤال كان لا يحتمل جوابا غير ذلك الجواب ، لو انه سؤال ما كان ينبغى أن يتوجه للأحنف ويترقب سائله ان يقول له : بل أنا أحلم من معاوية !.. وقد كان الاحنف خاصة يرى من عرف الحلم أن يستصغره وأن يقول عن نفسه -كما نقل صاحب العقد قبل ذلك بسطر واحد : لست حليما ولكننى أتحالم

***

ولو ان الاحنف قال برأيه ذاك اعتقادا ولم يقل به تواضعا أو تحالما لكان على خطأ لا يخفى عند النظرة اليسيرة فى أسباب تفضيله معاوية على نفسه ... فما هى القدرة التى كانت مطلوبة من الاحنف فى مقامه ؟ لقد كان يكفيه ان يقدر على كلمة لا يعجز عنها أحد ، وكان يكفيه ان يمسك تلك الكلمة فيكون أقوى الناس على نفسه كما وصفه خالد بن صفوان ، وأما الملوك فالمطلوب منهم أعمال لا يقدرون عليها فى كل وقت ولا مع كل أحد . الا أن يكون المقصود بالقدرة طياشة جامحة تخبط

ما تشاء بغير مبالاة ، وليس قصارى الحليم انه غير الطياش وغير الخابط الذى لا ينظر الى عقباه

ويوزن الراوى فى روايته هذه فلا نجهل موقع الهوى فيما يشاع عن حلم معاوية ويسر انتقال الاشاعة من قائل الى قائل ومن ناقل الى ناقل . فما فى هوى الاندلسيين لبنى أمية من خفاء ودولتهم الأولى أموية فى أساسها ، وابن عبد ربه نفسه حفيد لسالم القرطبى مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وأقل ما يقال فى نقل ابن عبد ربه لكلمة الاحنف انها تزكية لرأس الدولة الأموية رحب بها ووافقت هواه

***

ونعود الى تاريخ معاوية فيما قاله وفيما سكت عن قوله منذ نشأته الأولى فلا نجد فيه أثرا واحدا لطبيعة الغضب التى تمتحن بها فضيلة الحلم كما امتحنت فى نفس الرجل الحزين فى صدمة الثكل وهو المقتحم المغوار فى الجاهلية والاسلام

ونخال ان التاريخ لم يحفظ لنا غير حادث واحد يفتح لنا مغاليق هذه الخليقة فى طوية الرجل ، فانها فى الحق لغز لا يكفى لحله مجرد القول بالحلم أو بالغضب المكبوت أو بطول الاناة ، وانما يحله علم النفس الحديث على النحو الوحيد الذى يعطينا منه معنى مفهوما على وجه من الوجوه ..

ذلك الحادث هو مقتل حجر بن عدى وأصحابه لغير ضرورة عاجلة ولا مصلحة آجلة ، فما كان له من خطب غير انه واحد من أولئك الذين قال فيهم معاوية انه لا يحول بينهم وبين ألسنتهم لأنهم لا يحولون بين بنى أمية وملكهم ، فان كان لابد من اسكاته فقد يسكته ان يحملوه الى مكان لا يلقى فيه من يستمع اليه

***

قال ابن الأثير بعد أقاويل شتى : « ان زيادا خطب يوم جمعة فأطال

الخطبة وأخر الصلاة فقال له حجر بن عدى : الصــلاة !.. فمضى فى خطبته .. فقال : الصلاة !.. فمضى فى خطبته .. فلما خشى حجر بن عدى فوت الصلاة ضرب بيده الى كف من حصى وقام الى الصلاة وقام الناس معه ، فلما رأى زياد ذلك نزل فصلى بالناس وكتب الى معاوية وكثر عليه ، فكتب اليه معاوية ليشده بالحديد ويرسله اليه . فلما أراد أخذه قام قومه ليمنعوه فقال حجر : لا ، ولكن سمعا وطاعة . فشد فى الحديد وحمل الى معاوية فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال معــاوية : أأمير المؤمنين أنا ؟ .. والله لا اقيلك ولا استقيلك .. اخرجوه فاضربوا عنقه ، فقال حجر للذين يلون أمره : دعونى حتى أصلى ركعتين ، فقالوا : صل .. فصل ركعتين خفف فيهما ثم قال : لولا ان تظنوا بى غير الذى أردت لأطلتهما ، وقال لمن حضر من قومه : والله لا تطلقوا عنى حديدا ولا تغسلوا عنى دما . فانى لاق معاوية غدا على الجادة . وضربت عنقه »

ودهش الناس لهذه المقتلة الجزاف واهتز لها العالم الاســلامى هزة عنيفة أورثته مبغضة لدولة بنى أمية من تلك المبغضات التى كمنت وطالت حتى نسيت أسبابها وبقيت نوازعها ، وظل شبح الشهيد الوقور يساور معاوية الى يوم وفاته ، فجاء فى رواية ابن سيرين : « ان معاوية لمــا حضرته الوفاة جعل يقول : يومى منك يا حجر طويل »

ولا يحاط بعوارض الفزع التى ألمت بالعالم الاسلامى من جراء هذه المقتلة الباغية ولكنها قد تتمثل فى عارض واحد يدل على كثير . فان الخبر الذى ذاع عن تسيير حجر وأصحابه الى دمشق لم يكد يصل الى السيدة عائشــة بالحجاز حتى أوفدت عبد الرحمن بن الحارث يتشفع فيه وفى صحبه ، وهى لا تنسى ان أعوان معاوية قتلوا أخاها محمدا شر قتلة ولا يخفى عليها غلو حجر وأصحابه فى حب على وشيعته وبينها وبين العلويين من الجفوة ما هو معلوم

وقد فات معاوية كل عذر فى هــذه المقتلة حتى ما كان من عذر واه

كعذر ابنه يزيد فى مقتلة الحسين . فان يزيد قد احال الذنب على عبيد الله ابن زياد ، وانعكست الآية فى أمر معاوية وحجر فكان زياد هو الذى نفض يديه من وزر هؤلاء الشهداء وألقاه على مولاه ، وضاق مولاه بانتحال المعذرة بعد حين فكان جوابه لسائليه مما يخجل الطفل بين الصغار فضلا عن العاهل بين الساسة وفى ذمة التاريخ .. قال له عبد الرحمن بن الحارث : أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟.. فقال : حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى .. وحملنى ابن سمية فاحتملت .. وسألته السيدة عائشة مثل هذا السؤال فقال : لم يكن حولى رشيد ، وكانت السيدة عائشة تقول : لولا انا لم نغير شيئا الا صارت بنا الأمور الى ما هو أشد منه لغيرنا مقتل حجر .. أما والله ان كان لمسلما حجاجا معتمرا ، وكان الحسن البصرى الزاهد المعروف يقول : أربع خصال كنَّ فى معاوية لو لم تكن فيه الا واحدة لكانت موبقة ، ثم أحصاها وذكر منها مقتل حجر : « فيا ويلا له من حجر . ياويلا له من حجر . ياويلا له من أصحاب حجر »

وفى رثاء حجر تقول هند بنت زيد الانصارية :

تجبرت الجبابر بعد حجر
وطاب لها الخورنق والسدير
فان يهلك فكل زعيم قوم
من الدنيا الى هلك يصير

***

ومعذرة معاوية هذه خليقة ان تدعونا الى تصديق الوصية التى أوصاه بها أبوه حين سافر الى الشام . فقد يستكثر على معاوية أن يؤمر بمراجعة أبيه فى كل كبيرة وصغيرة قبل أن يحدث بينه وبين أحد أمرا فى خصومة أو قطيعة وقد يستكثر عليه أن يصفعه صافح فلا يقتص لنفسه حتى يسأل أباه ويترقب الجواب منه ، فاذا كان الرجل يرتضى من معاذيره ان يقوده ابن سمية فينقاد لأنه لم يجد حوله رجلا رشيدا فليس بالكثير أن

يؤمر بمراجعة أبيه فى شتم شاتم وضرب ضارب ، وهو فى مقتبل الشباب قبل الولاية وقبل الخلافة

ولسنا نفهم من ذلك ان معاوية كان فىحكم القاصر فى شبابه وكهولته ، ولكننا نفهم ان أباه كان يعرفه وكان يعرف انه لا يحتكم الى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها

حدث صاحب العقد الفريد فى الجزء الأول عن أبى حاتم عن العتبى قال : « قدم معاوية من الشام وعمرو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب ، فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما الى أن اعترض عمر فى حديث معاوية فقال له معاوية : أعملى تعيب والى تقصد ؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملى وأخبره عن عملك . قال عمرو : فعلمت انه بعملى أبصر منى بعمله ، وان عمر لايدع أول هذا الحديث حتى يصير الى آخره . فأردت أن أفعل شيئا أشغل به عمر عن ذلك ، فرفعت يدى فلطمت معاوية . فقال عمر : تالله ما رأيت رجلا أسفه منك . قم يا معاوية فاقتص منه . قال معاوية : ان أبى أمرنى ألا أقضى أمرا دونه . فأرسل عمر الى ابى سفيان فلما أتاه ألقى له وسادة وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا أتاكم كريم قوم فاكرموه . ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية فقال : لهذا بعثت الى ؟ أخوه وابن عمه ، وقد أتى غير كبير . وقد وهبت ذلك له »

وصاحب العقد ــ على هواه الأموى ــ يسوق هذه القصة فى سياق الثناء ، ولسنا نفهم من ذلك ان معاوية كان فى حكم القاصر فى شبابه وكهولته ، ولكننا نفهم ان أباه كان يعرفه وكان يعرف انه لا يحتكم الى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها وانه اذا غضب يتغاضب بالرأى والاختيار فيخطئه التقدير

***

وموقفه مع حجر وأصحابه ظاهرة نفسية معهودة فى الطبائع التى تصدم فتقبل الصدمة وتحذر من الاندفاع ، ولكنها اذا تركت بلا صدمة تردها

لم تعرف حدود الارتداد ولا تأبى أن تستسلم للاندفاع

تلك الظاهرة من موروثات طبيعة المطاردة فى الانسان وفى الحيوان أو السبع من قبله .. فقد علم المراقبون لطبائع الحيوان ان المطاردة عنده تقوم على حركات متتابعة ولا تقوم على حركة واحدة . فاذا لمح الحيوان من خصمه انه يجفل منه أخذ فى الهجوم ، واذا عدا خصمه أمامه أخذ فى العدو وراءه ، واذا أدركه ولم يجد منه مقاومة تمادى فى صرعه وافتراسه ، ولعله لو وقف أمامه رابط الجأش من مبدأ الأمر لم تتنبه فيه حركة الهجوم فحركة المطاردة فحركة اللحاق والافتراس ، وعرف صادة الأسود — وهى أخطر السباع — انها تتردد اذا واجهها الانسان ثابت النظر راسخ القدمين

وقد دخل حجر على معاوية ، ومعاوية ينتظر منه صدمة يتبعها حذر فانتباه لواجب الحلم والاناة ، فلما دخل حجر محييا له بالامارة وزال الحاجز الأول زالت معه الحواجز الأخريات ، ولم يعلم الرجل أين يكون الوقوف ..

ونظن ان هذه الخليقة قد أوشكت أن تبرز فى طوية معاوية من وعيه الباطن الى وعيه الظاهر ، ومن ذلك قوله : « اذا شد الناس شعرة أرخيتها واذا أرخوها شددتها » . أو قوله : « اذا طرتم وقعنا ، واذا وقعتم طرنا » . أو قوله لزياد : « كن انت للشدة ولأكن أنا للين » .. فهو يتلقى وحى طبيعته من الصدمة التى تلقاه ، فان لم تكن صدمة فهناك الحيرة التي لا تخرجه منها طبيعة تلوذ بالغضب على قدره فلا تقف حيث ينبغى لها الوقوف ، ولو كان للغضب عنده أثره المطبوع لانتظر الناس حلمه حيث يغضبون وانتظروا غضبه حيث يحلمون . وكثير من أمثال هذه الخليقة تلقاه بيننا كل يوم فيقول القائل عن الرجل من أصحابها : لو انك شددت عليه لأرضاك وحمدت أثر الشدة عليه !

***

ويستدعينا ختام هذا الفصل تفرقة أخرى كالتفرقة بين الحلم وامتناع

الغضب ، وهى التفرقة بين الطموح الى الزعامة والصولة والطموح الى الشرف الاجتماعى والوجاهة السياسية

فالطموح الى الزعامة والصولة مزاج حيوى يدخل فى تركيب البنية ويدفع صاحبه كما تدفعه وظـائف الجسد فلا يستريح أو يقود الأمم قيادة الزعامة ويصول بعظمة الرئاسة والعلو على الأقران والأتباع

والطموح الى الشرف الاجتماعى تقليد من تقاليد المجتمع يحرص عليه من توارثوه حرصهم على الحطام وبسطة العيش ووجاهة الأسرة والبيت ، ويغلب عليه ان يكون تراثا متخلفا من الآباء للأبناء يغض من الأبناء ان تتخلوا عنه ويروا غيرهم فى مكانه

ولا يلزم من الطموح الى الشرف الاجتماعى ان يكون صاحبه مطبوعا على الصولة والعلو وطلب الطاعة والخضوع ، وقد يلجأ صـاحبه الى المداورة واللين والخضوع لهذا والمصانعة لذاك ليحتفظ بالتراث الذى صار اليه أو يرجو أن يصير اليه

ونحن فى قرانا نشهد المثال على كل من النموذجين فى كل قرية وكل اقليم . فبينا يستميت « بيت العمدة » فى استبقاء وجاهته ويلين من أجل ذلك للحاكم وصاحب الأمر وأعوانه على المكانة الموروثة ينهض رجل آخر مطبوع على الانفة والصولة فيستطيل على تلك المكانة وينازع فى تلك الوجاهة ولايستريح الا اذا أمر وتحدى وملك زمام العزة بالمقال والفعال

وبنو أمية عامة ، ومعاوية خاصة ، من أصحاب « المظهر الاجتماعى » وليس فيهم غير القليل النادر من أصحاب الطموح الى الزعامة والصولة كما تكون فى بنية المزاج وتركيب الخلق والجسد ، وقد صبر معـاوية على ألوان من الخضوع فى طلب وجاهته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة الناس ، لأنه يطلب تلك الوجاهة بتقليد وراثى ولا يطلبهـا بنزعة غلابة فى الطبيعة والتكوين

***

واحتاج أن يقول مرة كما جاء فى الطبرى مسندا الى سعيد بن سويد :

« ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا . قد عرفت انكم تفعلون ذلك ، ولكن انما قاتلتكم لأتأمر عليكم »

وهى قولة لم يقلها أحد غيره من المطبوعين على الصولة والزعامة لأنهم لا يحتاجون اليها ، ولكنه قالها لأنها جثمت على صدره لطول ما صبر على مجابهة هذا ومصانعة ذاك ، وتذكير المذكرين اياه انه لم يملكهم عنوة ولا فتحا ، بل ملكهم المشارطة والاتفاق .. فنفّس عن صدره بتلك الكلمة ولم يحدث من غيره انه شعر بالحاجة الى تنفيس كذلك التنفيس

لقد كان فى الرجل مشابهة للجمل الصبور ولم تكن فيه مشابهة للأسد الهصور ..

كان يصفح لأنه لا يغضب ، وكان يحمل على كاهله وفى طوايا نفسه ما ينوء غيره بحمله ، وكان يصبر الصبر الطويل على بلوغ الجاه حيث لا يطاق هذا الصبر مع نزوع الطبيعة السوارة الى الزعامة والصولة

كان حلمه امتناع غضب ، وكانت همّته تقليد وراثة وحلية وجاهة ..

وقد قال مرة أو مرات : « ان السلطان يغضب غضب الصبى ويأخذ أخذ الأسد » ..

ولكنه حين غضب غضبته الآبدة فى مقتل حجر وصحبه لم يغضب غضب الصبى وحسب ، بل التمس العذر ، مجفلا من غضبته ، فلم يفتح عليه بغير عذر الصبى بين يدى الفقيه !

خَلِيقَةٌ أُمَوِيَّة

تميزت لبنى أمية فى الجاهلية وصدر الاسلام خلائق عامة يوشك أن تسمى ـ لعمومها بينهم ـ خلائق أموية ، وهى تقابل ما نسميه فى عصرنا بالخلائق الدنيوية أو النفعية ويراد بها أن المرء يؤثر لنفسه ولذويه ولا يؤثر عليها وعليهم فى مواطن الايثار

وهذه الخلائق أعون لنا على التعريف بمعاوية من الخلائق التى ينسبها اليه المادحون والقادحون ، لأن المادحين والقادحين قد يصدرون عن غرض ، وقد ينوون الصدق ولكنهم يخطئون فى أمر الرجل الواحد ، أما الأخلاق التى تعم قبيلا بأسره فى أجيال متتابعة فهى أصعب تلفيقا على الملفقين وأصعب خطأ على المخطئين ، فان الاجماع على الخطأ نادر فى أخبار الناس كالاجماع على الصواب

وهذه الخلائق الأموية دنيوية نفعية كما قدمنا ، تميل بالمتخلقين بها الى مناعم الحياة وتحبب اليهم العيش الرغد والمنزل الوثير وتغريهم بالنعم واللذات يغدقونها على أنفسهم وعلى الأقربين ، فهى عندهم قسطاس البر بمن يحبون كما يحبون

وقد عرف خيارهم ، دينا وصلاحا ، بهذه الخلائق الأموية كما عرف بها كثيرون منهم لم يشتهروا بدين ولا صلاح

فما عرف من بنى أمية أحد أصلح من عثمان بن عفان وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما ، وما تكلم متكلم عن هذين العلمين الرفيعين من بنى أمية فاستطاع أن يسكت عما طبعا عليه من حب النعمة ووجاهة الدنيا على أحسن ما يروى عن الأمويين

كان عثمان رضى الله عنه يقول عن نفسه كما جاء فى كتاب الرياض

النضرة : « كنت رجلا مستهترا بالنساء » وكان استهتاره بهن أن يكثر من الزواج ..

وحب عثمان لاتخاذ المباني والعمائر مشهور ، وحبه لاختصاص ذوى قرباه واغداق النعمة عليهم مشهور كذلك ، وكله مما أحصاه عليه الثائرون ووجدوا فيه متسعا للتزيد والادعاء

***

وعاش بعد الاسلام محبا للطعام الدسم والصحاف المنتقاة فحدث عمرو ابن أمية الضمرى عنه قال : « انى كنت أتعشى مع عثمان خزيرة من طبخ من أجود ما رأيت ، فيها بطون الغنم وادمها اللبن والسمن ، فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام ؟ فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال : يرحم الله ابن الخطاب . أكلت معه هذه الخزيرة قط . قلت : نعم فكادت اللقمة تفرث من يدى حين أهوى بها الى فمى وليس فيها لحم ، وكان ادمها السمن ولا لبن فيها . فقال عثمان : صدقت ! ان عمر رضى الله عنه أتعب والله من اتبع أثره ، وانه كان يطلب بثنيه ــ أى منعه ــ عن هذه الأمور ظلفا ــ أى غلظة ــ فى المعيشة . ثم قال : اما والله ما آكله من مال المسلمين ولكنى آكله من مالى . وانت تعلم انى كنت أكثر قريش مالا وأجدهم فى التجارة ، ولم أزل آكل الطعام ما لان منه . وقد بلغت سنا ، فأحب الطعام الي ألينه »

وقد كان عثمان أسرع قومه الى الاسلام لاسباب بيناها فى كتابنا « ذى النورين » .. وانما حسب له الاسراع الى الاسلام حيث حسب الابطاء والتقاعد عنه للأكثرين من بنى أمية ، على ديدنهم فى كل دعوة من دعوات المثل العليا أو دعوات الاريحية والايثار ، ولا موضع هنا للاطالة فى نقل أخبار المنافرات والمفاخرات التى تلم بهذا المعنى ولكننا نجملها جميعا فى موقف القوم من حلف الفضول وهو مشروح بتفصيلاته التى لا يشك فيها من يشكون فى تلك المنافرات والمفاخرات ، فقد ظلم رجل فى جوار الحرم وباع بضاعة لواه بحقها من اشتراها فاستغاث بذوى

المروءة وقام على شرف من الأرض يعلن شكواه ، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم على انصافه وانصاف كل مظلوم مثله ، فلا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا الى ماء من زمزم فجعلوه فى جفنه وبعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه وشربوه ، ولم يدخل فى هذا الحلف أحد من أمية وبنى عبد شمس ، بل كان الرجل منهم يود أن يدخله فيخشى أن يحسب خارجا على قومه ، وقال أحدهم عتبة بن ربيعة : لو ان رجلا وحده خرج على قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول

***

وهذه الخلائق الأموية وضحت فى الجاهلية وصدر الاسلام وضوحا لا لبس فيه قبل أن تلتبس الانساب ويكثر الزواج من غير العشيرة ، والبناء بالجوارى من الروم والفرس والترك والبربر ، ولكنها ظلت أموية حيث تغلب الأموية فى الدم والنشأة والقدوة والجوار

فعمر بن عبد العزيز ــ أشبه الملوك فى دولة بنى أمية بالخلفاء الراشدين ــ كان كما جاء فى أسانيد ابن الجوزى : « رأيته فى المدينة وهو أحسن الناس لباسا ومن أطيب الناس ريحا ومن أخيل الناس فى مشيته ، ثم رأيته بعد ذلك يمشى مشية الرهبان »

واتفق الرواة ، كابن عبد الحكم والاصفهانى وابن الجوزى فى أطراف من أسانيده ، انه كان يتطيب فى شبابه فينتظر الناس ثيابه عند الغسال ليغسلها لهم فى موضعها ، وانه كان يرجل شعره ويتبختر فى مشيته حتى عرفت له مشية عمرية يحكيها الفتيان والفتيات ، وكان يتختم بالجواهر ويلبس الازار بمائة دينار ، ولا يرى مرتين فى كساء واحد ، وربما تأخر فى صباه عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل شعره ، وسأله مؤدبه صالح ابن كيسان مرة عن تأخره وهو ينتظره لاقامة الصلاة ، فاعتذر له بابطاء مرجلته ــ أى الجارية التى تعنى بترجيل شعره ــ فغضب المؤدب الصارم

ولامه أن يغفل عن موعد صلاته ليعنى بتسكين شعره

وما برح الخليفة الصالح فى نصب من أمر عاداته هذه حتى أقلع عنها بعد جهد ، وآب من ترف المسرفين الى نسك المتزمتين ، وقيل انه ترف من بنى أمية ، ونسك من الفاروق ، لأنه ينتمى من ناحية أمه اليه ..

وعلى هذا الجهد بقيت معه تلك المشية تعاوده ولا يأمن أن يسهو عن نفسه فيثوب اليها فى طريقه ، فجعل له قرينا يلازمه ويصفقه بيده كلما همّ أن يثوب اليها ..

***

ولا ننسى أن بنى أمية عشيرة عربية كبيرة قد تتميز بخلائقها الأموية ولكنها لا تنفصل عن المجتمع العربى ولا تشذ عن عرفه التقليدى الذى ترعاه جميع العشائر الكبرى ولو من قبيل المحافظة على المراسم والأشكال ، ومن تقاليد هذا العرف أن تروض بيوت الرئاسة أبناءها على نظام كالنظام العسكرى فى صباهم وبعد بلوغهم مبلغ الشباب الذى يندب للقتال أو لتصريف الأمور ، وسواء اختاروا البادية لتدريب الأبناء على هذه الرياضة أو عهدوا بها الى المربين فى المدن والدور فلا ينشأ الناشىء منهم الا على رياضة من هاتين الرياضتين ، وكذلك فعل عبد العزيز بن مروان فى تربية ابنه عمر فاختار له المؤدب الذى يثقفه ويأخذه بفرائض دينه ودنياه ، ولما بلغه من هذا المؤدب ــ صالح بن كيسان ــ ان الفتى الصغير يتأخر عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل شعره أرسل اليه من قبله رسولا خاصا فأمره ألا يكلمه حتى يقص شعره ويبلغه غضب أبيه ، ولا نحسب ان أحدا من رؤساء البيت غفل عن مثل هذه الرياضة فى تنشئة بنيه ، ولكنها رياضة تنتهى الى القدوة البيتية فلا يبقى لها من أثر أو لا يبقى لها الا الأثر الضعيف . وكان عبد العزيز يعاقب عمر ذلك العقاب وهو ينزع فى الترف منزعا لا يستطيع ابنه ــ وان أسرف ــ أن يذهب الى مدى أبعد من مداه ، فاقتنى الدور فى مصر وجملها بالأثاث الفاخر وجعل يهديها الى أبنائه وذويه ، واشترى أرض حلوان بعشرة آلاف دينار ليقيم

عليها قصره المنيف الذى موه جدرانه بالذهب وأنفق على فراشه وأثاثه عشرات الألوف ، وكان له كل يوم ألف جفنة للقرى بدار الضيفان وكانت أيامه كلها كأنها أيام أعياد كما جاء فى معجم البلدان :

كل يوم كأنه عيــــد أضـحى عند عبـد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنـــة متـــرعات كل يوم يمـــدها الف قدر

***

وشهد هذا البذخ كله عمر وتقلب بين أعطافه ، فلولا عرق من الفاروق أدركه لما تحول من هذا البذخ الى النسك الذى ضارع به أزهد الخلفاء الراشدين ..

وليس عبد العزيز — على هذا — بالمثل الذى يقال عنه انه « نموذج » للخليقة الأموية فى الكلف بالنعمة الدنيوية والعجب بالزينة والشـــارة وبالقسامة والوسامة ، بل كانت هذه الخليقة على أتمها فى سليمان بن عبد الملك أكلفهم بنعمة العيش حيث كانت فى طعام أو كساء أو ترف أو سرف أو خيلاء ..

كان نهما لا يشبع ولا يرجع الخوان من بين يديه وعليه بقية ، وكان يلبس الوشى على أفخر حلية وزينة ويحضر الطهاة بين يديه بالسفافيــد عليها الدجاج والطير فلا يتمهل بها حتى تنضج بل يلف يده فى كمــه ويتناولها من النار ويأتى عليها قبل أن تنقل الى الصحاف ، وربما صحبه عمر فى السفر وهو صائم فلا يجد على المائدة فضل طعام اذا حان موعد الافطار ، وقد مات بالتخمة مع اصابته بالحمى وهو فى الأربعين وأبناؤه الصغار لا يصلحون لولاية العهد ، فجعل ينظر اليهم وينشد :

ان بنى صـــبية صـــغار أفلح من كان له كبـــــار

وأمر وزيره رجاء بن حياة أن يعرضهم عليه فى الخوذات والدروع لعله يخدع نفسه بمنظر صبى منهم يصلح لولاية الملك فلم يجد منهم من يروعه أو يروقه فى تلك الأزياء . وأوصى بولاية العهد على كره لعمر بن عبد العزيز ..

قال ابن الجوزى فى سيرة عمر باسناده : « ان سليمان بن عبد الملك كان ربما نظر فى المرآة فيقول : أنا الملك الشاب .. وكان جالسا فنظر فى المرآة الى وجهه فأعجبه ما رأى من جماله فقال : أنا الملك الشاب ، وكانت على رأسه وصيفة فقالت :

أنت نعم المتـــاع لو كنت تبقى غير ان لا بقـــاء للانســـان

ويروى هذا البيت فى أسانيد أخرى ومعه البيت التالى :

ليس فيما بدا لنـــا منك عيب عابه النـــــاس غير انك فان

ودخل عليه المفضل بن المهلب يوم جمعة فرآه يدعو بالثياب ويلبس منها حلة بعد حلة ويتخايل بها أمام المرآة ثم يخلعها ويأتى بغيرها حتى ارتضى حلة منها فالتفت الى المفضل سائلا : يا ابن المهلب .. أعجبتك ؟ قال المفضل : نعم . فحسر عن ذراعيه وهو يقول : أنا الملك الفتى

هذا هو الأموى من الأمويين ، وغيره منهم يشبهه فى كل خصلة من هذه الخصال على درجات ، ومنهم معاوية رأس الدولة وأقربهم الى أرومة الميراث ..

***

كان فى معاوية كل خصلة من خصال سليمان بن عبد الملك ولكنه لم يسترسل فيها كما استرسل سليمان مع تطاول الزمن بعد قدوة النبوة والخلافة الأولى خلافة الراشدين

جاء فى الطبرى انه كان يأكل فى اليوم سبع مرات بلحم ويقول : « والله ما أشبع وانما أعيا »

ولم يروها الطبرى وهو يشهر بها ، بل رواها وقال بعدها : « وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك »

وسبق الطبرى هذا الخبر بتعليل لهذه النهمة من دعوة رسول الله عليه فى صباه ..

فمن أخبار الامام أحمد المسندة الى ابن عباس انه قال : « كنت ألعب مع الغلمان فاذا رسول الله قد جاء فقلت : ما جاء الا الى . فاختبأت على

باب فجاءنى فخطانى خطاة أو خطاتين ثم قال : اذهب فادع لى معاوية ، وكان يكتب الوحى . فذهبت فدعوته له فقيل : انه يأكل ! فأتيت رسول الله فقلت : انه يأكل . فقال : اذهب فادعه . فأتيته الثانية فقيل انه يأكل ، فأخبرته . فقال فى الثالثة : لا أشبع الله بطنه .. فما شبع بعدها »

ولم يزل بعد الامارة يفرط فى مأكله من اللحوم والحلوى والفاكهة حتى ترهل وعجز عن القيام طويلا فكان يخطب على المنبر وهو جالس ، وكان أول من جلس فى خطبة منبرية

***

وشغف بالاكسية كما شغف بالأطعمة ، فلبس الحرير وتختم بالذهب والجوهر وولع بالثياب المزخرفة والموشاة وتزين بالزينة التى كرهها الاسلام لعامة الرجال فضلا عن الخلفاء والأمراء ، وكان لا يملك أن يترك الزينة بالكساء فى صدر الدعوة والخلافة وفى الزمن الذى كان يتحرج فيه من اغضاب ولى الأمر ، وهو عمر بن الخطاب

قال عبدالله بن المبارك فى كتاب الزهد كما رواه الطبرى : « قدم علينا معاوية وهو أبيض بض وباص ، أبض الناس وأجملهم ، فخرج الى الحج مع عمر ، فكان عمر ينظر اليه فيعجب منه ، ثم يضع أصبعه على متن معاوية ثم يرفعها عن مثل الشراك فيقول : « بخ بخ . نحن اذن خير الناس ان جمع لنا خير الدنيا والآخرة » . فقال معاوية : « يا أمير المؤمنين ! سأحدثك . انا بأرض الحمامات والريف والشهوات » فقال عمر : « سأحدثك أنا .. ما بك الا ألطافك نفسك بألطف الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب » ، فقال معاوية : يا أمير المؤمنين . علمنى أمتثل قال راوى الخبر : فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها ، فوجد عمر منها ريحا كأنه ريح طيب ، فقال : يعمد أحدكم فيخرج حاجا مقلا حتى اذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما ؟ فقال معاوية : انما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتى وقومى . فال عمر : والله لقد بلغنى أذاك هنا وفى الشام »

وزاد راوى الخبر فقال : « والله يعلم انى لقد عرفت الحياء فيه ، ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما »

وروى عمرو بن يحيى بن سعيد الأموى عن جده قال : « دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء . فنظر اليها الصحابة ، فلما رأى ذلك عمر وثب اليه بالدرة فجعل يضربه بها ، وجعل معاوية يقول : الله الله فى يا أمير المؤمنين . فرجع عمر الى مجلسه فقال له القوم : لم ضربته يا أمير المؤمنين وما فى قومك مثله ؟ فقال : والله ما رأيت الا خيرا وما بلغنى الا خير ، ولو بلغنى غير ذلك لكان منى اليه غير ما رأيتم . ولكن رأيته — وأشار بيده — فأحببت أن أضع منه ما شمخ »

ولم يكن زهوه بسمته وسماته دون زهو سليمان ، فكان يصفر لحيته كأنها الذهب .. وقد أصابته لوقة فى آخر عمره — وهى كأثر الضربة فى الجلد — فكان يستر وجهه ويقول : « رحم الله عبدا دعا لى بالعافية فقد رميت فى أحسنى ولولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى »

***

وهواه فى يزيد لون من ألوان هذه الخلة الأموية ، فكل الآباء يحبون الأبناء .. ولكن القوم لا يحسبون الأب بارا بابنه الا اذا « نعمه » أو شغل بتنعيمه فيما ينظر فيه الآباء من رغد أبنائهم وفيما يتركونه لهم ويتغاضون عنه كأنهم يجهلونه . وقد أرسل معاوية ابنه يزيد الى بادية بنى كلب — أخواله — ليتربى بينهم على الفروسية والبلاغة العربية ، ولكنه فعل ذلك كأنما يفعله قياما بما تقتضيه مراسم السلف ولم يتبعه بما هو ألزم ليزيد من ضروب التربية والرياضة على كبح الأهواء ولا سيما الهوى الذى ينظر الى حرمات الناس وأعراض الرعية ، فقد علق يزيد بزوجة عبدالله بن سلام زينب بنت اسحاق ، ومرض بحبها مرضا ادنفه فاحتال أبوه حتى عرف سر مرضه من خصيان القصر ، فأرسل فى طلب أبى هريرة وأبى الدرداء فقال لهما : ان لى ابنة أريد زواجها ولا أرضى لها حليلا غير ابن سلام لدينه وفضله وشرفه ، فانخدع ابن سلام وذهب الى معاوية يخطب بنته وقيل

ان معاوية وكل الأمر الى أبى هريرة ليبلغها ويستمع جوابها ، فأجابته بما اتفقت عليه مع أبيها وقالت له انها لا تكره ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها الى ما يغضب الله ، فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده فلواه به ونقل اليه عن ابنته انها لا تأمن رجلا يطلق ابنة عمه وأجمل نساء عصره ! ..

وكأنما كان معاوية مهموما بشهوات ولده فى زواج أو غير زواج ، فقد حدث ابن عساكر من ترجمة خديج الخصى ان معاوية اشترى جارية بيضاء جميلة فأدخلها الخصى عليه مجردة ، وبيده قضيب . فجعل يهوى به على جسدها ويقول : هذا المتاع لو كان لنا متاع . اذهب بها الى يزيد ثم قال : ادع لى ربيعة بن عمر الجرشى ـ وكان فقيها ـ فلما دخل عليه قال : ان هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك ، وانى أردت أن أبعث بها الى يزيد ، فقال الجرشى : لا تفعل يا أمير المؤمنين فانها لا تصلح له ، فقال معاوية : نعم ما رأيت ! ثم وهبها لعبدالله بن مسعدة الفزارى مولى فاطمة بنت رسول الله ، وكان أسود ، فقال له : بيضْ بها ولدك » ..

***

ونعود فنقول ان الطبرى يسند هذه الأخبار الى أصحابها ولا يسوقها مساق التشهير ، لأنه اتخذ من هذا الخبر دليلا على فقه معاوية فقال : « وهذا من فقه معاوية وتحريه ، حيث كان نظر اليها بشهوة ولكنه استضعف نفسه عنها فتحرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء . وقد وافقه على ذلك الفقيه ربيعة بن عمر الجرشى الدمشقى .. »

وما من تربية ليزيد تصلحه للخلافة بعد هذا « التنعيم » الذى يملى له فى شهواته وهو مقدم على رئاسة قريبة عهد بابن الخطاب بل بابن عفان ، فان الخليفة الثالث رضى الله عنه قد اجاز لنفسه من المتعة الدنيوية ما لم يجزه الفاروق ولكنه لم يحدث نفسه قط باقتناء الخصيان والجوارى

على سنة القياصرة والشواهين ، ولولا تلك الخليقة الأموية التى تمادى بها اتساع الملك فى أهوائها وغواياتها لما فات رجلا ـ وسط الذكاء ـ ان هذه التربية لا تعد انسانا لحياطة الملك المنتزع بالحيلة والحول قبل استقرار الأمور بين مطامع الأقرباء من العشيرة فضلا عن الغرباء

وكان معاوية ينازع طبعه بين الخليفة الأموية وبين آداب الدين الذى يتولى خلافته ، فينزل بنفسه درجات دون منزلة الخلفاء الراشدين لافتتانه بالدنيا واستسلامه لغوايتها ، وله أكثر من كلمة فى هذا المعنى يقول فى بعضها : « ان أبا بكر سلم من الدنيا وسلمت منه ، وعمر عالجها وعالجته ، وعثمان نال منها ونالت منه . أما أنا فقد تضجعتها ظهرا لبطن وانقطعت اليها فانقطعت الى » .. ويقول فى بعضها من خطبة بالمدينة : « ان أبا بكر رضى الله عنه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فنال منها ونالت منه ، وأما أنا فمالت بى وملت بها ، وأنا ابنها فهى أمى وأنا ابنها ، فان لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم »

وكأنما كان يشهد على نفسه هذه الشهادة تواضعا من جهة وتزكية لقدرته على الملك الدنيوى من جهة أخرى . فان كان الرعية لا يرتضونه قدوة للصلاح والتقوى ، فهم مرتضوه مدبرا لشئونهم وقائما على مصالح دنياهم ..

***

ويشعر معاوية بالمنازعة بين الخليقة الأموية وآداب المروءة العربية كما يشعر بالمنازعة بينها وبين آداب الدين . فان طالب السيادة يكره أن ينزل فى منزلة دون منازل الشرف والكرامة بين قومه ، فان لم يكره ذلك حبا للخلق المأثور فلعله يكرهه حبا لنفسه وغيرة على سيادته وعلوه فى نظر المكبرين لآداب المروءة سواء تحلوا بها أو تجردوا منها

ومن نوادر معاوية فى هذه المنازعة المتكررة بين خلائق عشيرته وآداب العرب عامة انه جلس يوما مع خاصته يسألهم فيما بقى له ولهم من لذات الحياة بعد ذهاب الشباب ، فاذا هى عنده لذات لا تعدو مذاق الشراب

السائغ وسروره بالنظر الى بنيه ، ثم نبهه منبه الى اسفافه هذا فانتبه ولم يكابر طبعه ، لأن الأمر وراء المكابرة باجماع العرف واجماع الدين

روى الواقدى أن عمرو بن العاص « دخل يوما على معاوية بعد ماكبر ودق ومعه مولاه وردان ، فأخذا فى الحديث وليس معهما أحـد غير وردان ، قال عمرو : يا أمير المؤمنين ! ما بقى مما تستلذه ؟ فقال : أما النساء فلا أرب لى فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيها ألين ، واما الطعام فقد أكلت من لذيذه وطيبه حتى ما أدرى ايه ألذ وأطيب ، وذكر مثل ذلك عن الطيب وغيره من مناعم الحياة . ثم قال : فما شىء ألذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف ، ومن أن أنظر الى بنى وبنى بنى يدورون حولى »

« وعطف معاوية سائلا : فما بقى منك يا عمرو ؟

« قال عمرو : مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته

« فالتفت معاوية الى وردان فقال : ما بقى منك يا وردان ؟

قال وردان : صنيعة كريمة سنية أعلقها فى أعناق قوم ذوى فضـل واصطبار لا يكافئوننى بها حتى ألقى الله تعالى ، وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى ..

« فقال معاوية : تبـا لمجلسنا سائر اليوم .. ان هذا العبـد غلبنى وغلبك .. ! »

خليقة أموية عربية . مضى الرجل على سجيته فلم يخطر له أن يستبقى من متاع الدنيا الذى عجز عنه الا شيئا يذاق وشيئا يسره من النظر الى ذريته ، ثم نبه المنبه الى المكرمات المأثورة فلم يجحدها ولم يعزب عنه حميد أثرها ..

وان شئت فقل خليقـة أموية وكفى .. فان من اثرة ما يوحى الى صاحبه ألا ينزل طواعية عن مأثرة يرتفع بها غيره ، ولا يسعه أن ينكرها

وهكذا كانت الخليقة الأموية مع المروءة العربية فى كل مأثرة محمودة بين عشائر العرب الكبرى وبين العرب خاصة وعامة ، وأولهـا مناقب

الشجاعة والكرم والنخوة ، فما كان فى وسع بنى أمية أن يغمضوا أعينهم عن هذه المناقب ولا أن يصغروا من حقها ، ولكن التسليم للمنقبة شيء والجهد فى تحصيلها شيء آخر .. ولهذا مضى تاريخ بنى أمية فى الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد العرب فرسانهم المقدمين وأجوادهم المشهورين وذوى النجدة من صفوة عشائرهم ونخبة ساداتهم ، وظهر فيهم الشجعان فى صدر الاسلام كيزيد بن أبى سفيان ــ وهو أخ غير شقيق لمعاوية ولكنه لا يحسب عندهم ولا عند غيرهم من فرسان هاشم فى جيل واحد ، كعلى وحمزة

وسئل معاوية نفسه ــ وسائله عمرو بن العاص ــ : والله ما أدرى يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان ؟ فقال :

شجاع اذا ما أمكنتنى فرصة
فان لم تكن لى فرصة فجبان

ولم يؤثر لمعاوية موقف واحد يحسب من مواقف الشجاعة البينة ، بل حسب عليه أنه كان يأوى الى قبة يحيط بها الحراس فى معارك صفين ، وانه أسرع الى فرسه فى ليلة الهرير لينجو بحياته ، ثم هدأ الخطر بعض الشيء فراجع نفسه وتراجع الى مكانه وهو آمن من عاقبة هذه الرجعة ، بعد أن خفت الهجمة على موضعه من ميدان القتال

***

وليس من أخبار بنى أمية فى الجاهلية وصدر الاسلام خبر واحد ينفى عنهم هذه الخليقة الغالبة عليهم جميعا من الاثرة والكلف بالمناعم الدنيوية وتقديمها على غيرها من مناقب الايثار والمثل العليا

وبهذه الخليقة يفسر كل عمل من أعمـــال معاوية على انفراده بينهم بصفات من الحزم لم يشتهروا جميعا بمثلها ، وهو مع حزمه « الدنيوى » هذا لم يصطدم بالخليقة الأموية الا وهن منه الحزم فى هذا المصطدم . فكان من الحزم ألا يتوسع فى ابهة الملك أو ابهة « الهرقلية والكسروية » كما كان المسلمون يسمونها فى صدر الأسلام ، ولكنه لم يكد يملك حتى

صنع مايصنع القياصرة والأكاسرة من اقتناء الخصيان والجوارى والتوسع فى بذخ القصور والقدور ، وكان من الحزم أن يروض يزيد على كبح الشهوات فلم يكد يسمع أنه اشتهى امرأة فى عصمة رجل حتى احتال حيلته لامتاعه بما اشتهى ، وان النهـازين من مؤرخى العصر القـديم ليفسرون صلاته الجامعة فى المقاصير بخوفه من الغيلة بعد مؤامرة الثلاثة التى قتل فيها على رضوان الله عليه . ولئن صح هذا لما نفى عنه تلك الخليقة الأموية التى تلوذ بالحيطة حيث لايلوذ بها المبرأون منها ، فقد قتل عمر وعلى ولم يلجأ الحسن أو الحسين الى المقاصير أو الى الحرس الميسر لهما وهو غير قليل ، وقد كانت ابهة المواكب من دأب معاوية اذ كان — بعد — على ولاية الشام من قبل الفاروق . فلما رآه الفاروق فى موكبه أعرض عنه ثم عنفه وسأله عن اتخاذ المواكب مع احتجابه عن ذوى الحاجات ، فاعتذر له بموقعه من بلاد العدو ، ودأب على اتخاذ المواكب وتسيير الجند بين يديه قبل أن يخشى غيلة من مغتال

عند هذه الخليقة الأموية تفسير الكثير مما جهله المؤرخون الأقدمون أو تجاهلوه ، ولا سيما المؤرخين النهازين من المنتفعين أو المتطوعين

مَوْقِفُ مُعَاوِيَةِ فِي قَضِيَّةِ عُثْمان

كل خبر من أخبار العصر لازم مطلوب لفهم تاريخه وأعمال رجاله ، ولكن الأخبار المقدمة على غيرها فى حوادث العالم الاسلامى التى أفضت الى قيام الخلافة الأموية انما هى الأخبار التى لها مساس بموقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله والمبايعة لعلى بالخلافة فى الحجاز

فبغير هذه الأخبار التى تكشف عن موقف معاوية لا يستطيع المؤرخ أن يتثبت من حقيقة البواعث التى كمنت وراء الحوادث والحروب والخصومات ، ولا يستطيع أن يعرف ماهو صحيح منها وما هو مصطنع من تدبير السواس والدعاة

فما هى حقيقة المسائل التى أثارت معاوية على علّى وجنحت به الى سلوك المسلك الذى اختاره هو ومعاونوه ؟ ماذا منها قد حدث فعلا وماذا منها لم يحدث وقيل انه حدث للانتفاع به فى الادعاء ورد الادعاء .. وفى الاتهام ورد الاتهام ؟ أو ماذا منها قد حدث فعلا وحرفه الدعاة الى غير وجهته وأولوه بغير معناه ؟ وماذا من تلك الحوادث جميعا كان خليقا أن يتغير لو تغير الموقف وتغيرت النيات والمساعى ؟

كل أولئك مرهون بالنفاذ الى حقيقة موقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله ومبايعة على بالحجاز

وكل ماوصل الينا من أخبار ذلك الموقف يدل على شىء واحد لا محل فيه للخلاف الطويل بين الناظرين اليه من الوجهة التاريخية الخالصة ، وهو عمل معاوية لنفسه فى كل مطلب طلبه من عثمان وكل نصيحة أسداها اليه وكل مشورة أشار بها عليه ، فليس فى هذه المطالب والنصائح أو المشورات شىء قط تجرد من منفعة ينظر اليها معاوية فى حاضره أو

مصيره ، وكل ماعدا ذلك فقد يكثر فيه الخلاف ويؤول فيه التأويل

كان معاوية فى عهد الفاروق قانعا بعطائه السنوى وهو ألف دينار ، وكان الولاة والرعية لايشكون اجحافا ولا محاباة فيما يرجع الى أرزاق العمال الكبار والصغار ومنهم الولاة . فلما انقضى عهد الفاروق كثرت الشكوى من تقسيم هذه الأرزاق ومن ايثار بعض الولاة بالولايات لقرابتهم من الخليفة ، وكانت هذه الشكوى احدى الدعايات التى تذرع بها المشاغبون للثورة التى تفاقمت حتى ذهبت بحياة عثمان

***

ولم يكن معاوية يجهل هذه النقمة الفاشية فى الولايات ، ولكنه على ذلك كتب الى عثمان يطلب زيادة عطائه ، ويطلب غير ذلك أن يقطعه الأرض التى قتل أصحابها من الروم أو تركوها وهاجروا الى بلاد غير البلاد المفتوحة من أرض الدولة البيزنطية ، وتعلل له بكثرة وفود الأمصار والرسل وان هذه الضياع المتروكة لايؤخذ عليها الخراج ولا تحسب من أموال أهل الذمة كما جاء فى تاريخ ابن عساكر ، وكانت هذه الضياع وأمثالها تلحق ببيت المال وينفق منها على المصالح العامة ومعونة المعوزين وذوى الحاجات ، فلما أذن له عثمان بزرعها والانتفاع بثمراتها حبسها على نفسه وعلى آل بيته وخدامه وأعوانه فى سياسته ، وعمد الى كل معترض عليه وعلى انفاقه لهذه الأموال فى غير وجوهها فأقصاه عن الشام وأرسله الى حيث يشاء من البلاد الاسلامية الأخرى لايعنيه أن يصنع الشاغبون ما يصنعون فى غير ولايته ، وهو يعلم أنهم سيشغبون على عثمان حيث ذهبوا وأن عثمان يلقى من الفتنة ماهو حسبه فى جواره

وحديث أبى ذر فى الشام معروف ننقل منه مايدور حول موقف معاوية من عثمان كما جاء فى ابن الأثير :

« كان أبو ذر يذهب الى أن المسلم لاينبغى أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شىء ينفقه فى سبيل الله أو يعده لكريم ويأخذ بظاهر القرآن .. « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل

الله فبشرهم بعذاب أليم » ... فكان يقوم بالشام ويقول : يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء .. بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فمازال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنيـاء ، وشكا الأغنياء مايلقون منهم فأرسل اليه معاوية بألف دينار فى جنح الليل فأنفقها . فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذى أرسله اليه فقال : اذهب الى أبى ذر فقل له : انقذ جسدى من عذاب معاوية ! فانه أرسلنى الى غيرك وانى أخطأت بك . ففعل ذلك ، فقال له أبو ذر : يابنى قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ، ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها ، فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله كتب الى عثمان : ان أبا ذر قد ضيق على ، وقد كان كذا وكذا للذى يقوله للفقراء . فكتب اليه عثمان : ان الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ولم يبق الا أن تثب ، فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذر الى وأبعث معه دليلا وزوده وأرفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت » ..

***

ولما خرج الشاغبون بالفتنة من الكوفة الى الشام بأمر عثمان كتب عثمان الى معاوية كما جاء فى ابن الأثير : « ان نفرا قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم فان آنست منهم رشدا فأقبل وان أعيوك فارددهم علي »

فلقيهم معاوية وزجرهم واغلظ لهم ، ثم اتاهم بعد ذلك فقال لهم : انى قد اذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم احدا ولا يضره ، ولا انتم برجال منفعة ولا مضرة . فان اردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا يبطرنكم الانعام فان البطر لا يعترى الخيار ، اذهبوا الى حيث شئتم فسأكتب الى امير المؤمنين فيكم »

وكتب الى امير المؤمنين يهون له من شأنهم ويقول عنهم انهم « ليسوا لأكثر من شغب ونكير »

ولم يكن أمرهم ليعييه ، فانهم ذهبوا حين سرحهم يقصدون الجزيرة

فعلم بهم عبد الرحمن بن خالد فما اعياه امرهم ودعاهم اليه ولم يذهب اليهم كما فعل معاوية فتوعدهم عبد الرحمن وعيدا لا يشكون فيه وقال لهم : « يا آلة الشيطان ! لا مرحبا بكم ولا اهلا . قد رجع الشيطان محسورا وانتم ــ بعد ــ نشاط . خسر الله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم .. يا معشر من لا ادرى أعرب هم أم عجم . لا تقولوا لى ما بلغنى انكم قلتم لمعاوية . انا ابن خالد بن الوليد . انا ابن من قد عجمته العاجمات . انا ابن فاقىء الردة . والله لئن بلغنى يا صعصعة ان احدا ممن معى دق انفك ثم امصكه ــ اى جعلك تمصه ــ لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى . فأقامهم شهرا كلما ركب مشاهم ، فاذا مر به صعصعة قال : يا ابن الخطيئة !.. أعلمت ان من لم يصلحه الخير أصلحه الشر . ما لك لا تقول كما بلغنى انك قلت لسعيد ومعاوية ؟.. فيقولون : نتوب الى الله . أقلنا أقالك الله . فما زالوا به حتى قال : تاب الله عليكم ، وسرح الاشتر الى عثمان . فقدم اليه ثانيا ، فقال له عثمان : احلل حيث شئت . فقال : مع عبد الرحمن بن خالد . فقال : ذلك اليك ، فرجع اليه »

***

وعلى اختلاف الروايات فى تنقل هذه الفئة بين الكوفة والشام ، وفيما قالوه وقيل لهم ، لم يتغير موقف معاوية فى جميع هذه الروايات ، وهو موقف الرجل الذى لا يبالى بعد امانه على ولايته ان تنجم الفتنة حيث نجمت وان يبتلى بها الخليفة بنجوة منه

وقد تفاقم الخطب ونظر الخليفة المحصور حوله يطلب الرأى من ذوى الرأى بين خاصته وخاصة المسلمين . واجتمع عنــده رهط منهم يوما اشاروا عليه بما بدا لهم ثم خرجوا فأمسك عثمان بابن عباس فقال له : يا ابن عمى ويا ابن خالتى . انه لم يبلغنى عنك فى أمرى شىء أحبه ولا اكرهه ، وقد علمت انك رأيت بعض ما رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك من ان تظهر ما اظهروا ، وقد احببت ان تعلمنى رأيك فيما بينى وبينك فاعتذر ... قال ابن عباس : يا امير المؤمنين انك قد ابتليتنى بعد العافية

وادخلتنى فى الضيق بعد السعة . ووالله ان رأيى لك رأى من يجل سنك ويعرف قدرك وسابقتك . ووالله لوددت انك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك . فان كان شيئا تركاه لانه ليس لهما علمت انه ليس لك كما لم يكن لهما ، وان كان ذلك لهما فتركاه خيفة ان ينال منهما مثل الذى نيل منك تركته لما تركاه له ولم يكونا أحق باكرام أنفسهما منك باكرام نفسك ..

قال عثمان : فما منعك أن تشير على بهـذا قبل أن أفعل ما فعلت ؟ قال ابن عباس : وما علمى انك تفعل ذلك قبل ان تفعله ؟ قال : فهب لى صمتا حتى ترى رأيى

وخرج ابن عباس وبقى معاوية فسأله عثمان فأجاب كما جاء فى الامامة والسياسة : « الرأى ان تأذن لى بضرب اعناق هؤلاء القوم . قال : من ؟ قال : على وطلحة والزبير .. قال عثمان : سبحان الله !.. أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث احدثوه ولا ذنب ركبوه ؟ قال معـاوية : فان لم تقتلهم فانهم سيقتلونك .. قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله فى أمته باهراق الدماء

« قال معاوية : فاختر منى احدى ثلاث خصال

« قال عثمان : ما هى ؟

« قال معاوية : ارتب لك ها هنا اربعة آلاف من خيل اهل الشام يكونون لك ردءا وبين يديك يدا

« قال عثمان : أرزقهم من أين ؟

« قال : من بيت المال

« قال عثمان : ارزق اربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمى ؟ لا فعلت هذا

! قال : فثانية

« قال : وما هى ؟

« قال : فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان فى مصر واحد واضرب

عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير منهم أهم عليه من صلاته

« قال عثمان : سبحان الله ! شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشـــــورى اخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهليهم وأبنائهم ؟ .. لا أفعل هذا ..

« قال معاوية : فثالثة !

« قال : وما هى ؟

« قال . اجعل لى الطلب بدمك ان قتلت

« قال عثمان : نعم هذه لك . ان قتلت فلا يطل دمى »

هذه رواية الامامة والسياسة ، وفى سائر الروايات ان معاوية قال له غير ذلك : اخرج معى الى الشام قبل ان يهجم عليك ما لا تطيقه . قال : لا ابتغى بجوار رسول الله بدلا »

***

تلك جملة الاراء التى اشار بها معاوية على الخليفة ، وما من رأى منها الا والنفع فيه ثابت لمعاوية غير ثابت لعثمان ، وربما كان فى معظمها ما يضره ولا يجديه ..

فليس قتـــل على وطلحة والزبير بالامر الهين الذى يدفع الشر عن الخليفة ، وليس هو بالخطة التى يختارها معاوية لنفسه لو كان فى موضع عثمان . وقد اعفى معاوية نفسه من التضييق على صعصعة ورهطه كما ضيق عليهم عبد الرحمن بن خالد فليس من خطته التى يختارها لنفســه ويحمل تبعتها على عاتقه ان يقتل ثلاثة من اقطاب الصحابة كعلى وطلحة والزبير كما أشار على عثمان ، وانما يبوء عثمان بتبعتها ويترك الامر من بعده لمعاوية بغير منافس ينافسه عليها ، بعد مقتل الثـلاثة الذين كانوا مرشحين لها عند أهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل مصر . اما أهل الشام فهم فى ولايته لايعرفون احدا غيره ينافسه باسمهم عند اختلاف المختلفين ، وليس ثمة مختلفون اذا نفذ القضاء فى الاقطاب المقتولين

واما الاشارة على عثمان باقامة اربعة آلاف من خيل الشام يحرسونه

فهو تسليم للحجاز الى يدى معاويه فى حياة الخليفة وبعد حيــاته ، فلا يقدر أحد على بيعة فيه غير البيعة التى يرضاها ، ولا تقع هذه البيعة اصلا لمن يستجيب لها او لا يستجيب

والخروج من المدينة الى الشام مع معاوية ينقل العاصمة الى دمشق ويجعل القول الفصل بعد موت الخليفة لصاحب القول الفصل فيها ، وما من أحد قط ينتفع من العمل بهذه النصائح غير معاوية فى جميع الحالات

وقد نقل الرواة والمؤرخون عن كل ناصح انه اشار على عثمان بترك خطة من خططه فى السياسة العامة ، ولم ينقل مثل ذلك عن معاوية فى جليل من الامر ولا يسير ، ولم يقف مثل موقفه غير مروان بن الحكم الذى لايملك ان ينهى عثمــان عن شىء ، لأنه كان سبب الشــكوى وصاحب التبعات جميعا فى كل مأخذ من مآخذ الثوار على العهد كله والسياسة بجملتها . فاذا كان سكوت مروان عن النصح بالتغيير مفهوما متوقعا فمثل هذا السكوت من معاوية لا يفهم الا على وجه واحد . وهو انه يعفى نفسه من تبعة النصيحة ليملى للخليفة فيما يرضاه ، ويعلم ان التغيير النافع يصيبه فى مقدمة الولاة المحسوبين على العهد كله ، وقد كان يتعهد للخليفة بكفايته أمر الشــام ويسأله ان يفرض على الولاة الآخرين مثل ذلك اليوم .. فان لم يقدروا مثل قدرته كان حقا له أن يخلفهم أو ينفض يديه من العمل والمشورة ..

***

وأثبت ما ثبت من منفعة معاوية بتلك المطالب التى عرضها على الخليفة فى شدته ــ مطلبه ان تكون له ولاية الدم بعد مقتله ، فانه بمثابة ولاية العهد باذن صاحب الامر . اذ كان القصاص انما يتولاه القائم بالشريعة حيث تقام حدود الدين ، ولم يكن عثمان ليخشى عليه القتل من فرد يعتدى عليه غيلة فيكون عمل ولى الدم ان يقتــاده الى الحاكم القائم بالشريعة ، ولكنه خشى عليه القتل من جماعات ثائرة لا يتولى اداتتهــا والقصاص منها غير صاحب سلطان اقوى من سلطانها وسلطان من تؤيده

وتطيعه على شرطها . فإذا كان معاوية قد طلب ولاية الدم بعد مقتل عثمان فقد طلب ولاية العهد وفارقه وهو يعلم انه مقتول

واوشك الخليفة ان يقتل ، فإذا نظرنا فى ارجاء العالم الاسلامى يومئذ لم نجد أحدا أقدر على نجدته من معاوية ، لأنه الوالى المستقر فى ولايته منذ عشرين سنة يقصى عنها كل من يعاديه ويبقى فيها كل من يواليه ، وغيره من الولاة فى ذلك العهد بين معزول او معتزل او مهدد فى سلطانه كما هدد الخليفة فى عاصمته ، ومن كان حول الخليفة من سروات المدينة فليس فى وسعه ان ينصره بقوة اقوى من الدولة وحراسها واشياعها ، فاذا جمح السفهاء جماحهم الذى يغلب الدولة على قوتها وهيبتها فحرى ان لا يصده زاجر ولا ناصح ممن لا يملكون غير الزجر والنصيحة

***

وأيا كان القول فى السروات الاخرين فواجب معاوية واضح لا لبس فيه ، وليس مما يقيله من هذا الواجب ان الخليفة أبى عليه اقامة جيش دائم الى جواره يرزقه من بيت المال ، فان عمل الجيش الدائم غير عمل النجدة العاجلة ، ولا يلام والى الشام على نجدة عاجلة بعد ان طلب الخليفة النجدة من الولاة ، ولو انه كان يلام على ذلك لكان اللوم أهون عليه من ترك الخليفة لقاتليه يسفكون دمه وهو معتذر بأمر صدر اليه فى حال غير هذه الحال

لقد كان ذوو الجرأة من المعارضين لعثمان يلقون معاوية بهذا اللوم كلما اخذهم باللوم لأنهم لم ينصروه ، ومن هؤلاء ابو الطفيل عامر بن واثلة الصحابى كما جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى :

قال له معاوية : ألست من قتلة عثمان ؟ قال ابو الطفيل : لا . ولكننى ممن حضره فلم ينصره

قال : وما منعك من نصره ؟

قال : لم تنصره المهاجرون والانصار

فقال معاوية : اما لقد كان حقه واجبا عليهم ان ينصروه

فقال ابو الطفيـــل : فما منعك يا امير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام ؟ ..

فقال معاوية : اما طلبى بدمه نصرة له ؟

فضحك ابو الطفيل ثم قال : انت وعثمان كما قال الشاعر :

لا الفينك بعد الموت تندبني   وفى حياتي ما زودتني زادي

ووقعت الواقعة ومات الخليفة قتيلا وذهب معاوية يطالب بدمه وينكر على علي بيعته لأنه لايسلمه قتلة عثمان ، ممن يذكرهم اجمالا أو يسمّيهم بأسمائهم ، وآل الأمر كله بعد حين الي معاوية يصنع بهؤلاء ما يشاء ، فلم يأخذ واحدا منهم بجريرة مشهودة ولم يحاسب احدا على جريرة مستورة تتطلب الاشهاد ، وكان يلقى الرجل منهم فلا يزيد على ان يسأله كما سأل ابا الطفيل : ألست من قتلة عثمان ؟ ثم يصرفه فى أمان ، وقد يسكت عن سؤاله ويصرفه مزودا بالعطاء

***

وظهر من مبدأ الخصومة ان الغيرة على عثمان لم تكن تلك الغيرة اللاعجة التى تثير الثائرة وتضرم الحروب ، فان معاوية قد حالف عمرو ابن العاص وكافأه بولاية مصر ، وهى ولاية عزله منها عثمان وبكته بذكرها يوم صاح به بين الجموع المتذمرة يسأله التوبة والاستغفار ، وكاد الرواة يجمعون على كلمة نقلت عن لسان ابن العاص فحواها انه كان يلقى الاعرابى فى البادية فيحرضـــه على عثمان ، فان لم يصح عن ابن العاص انه قائل تلك الكلمة فموقفه من فتنة عثمان كموقف ذوى الرأى جميعا ممن كان معاوية يحاسبهم على تركهم عثمان بغير نصير ، وكان فى وسعهم كما قال ان ينصروه

ولم يخف هذا الموقف الذى لا خفاء به على أبناء عثمان وبناته ، فانهم كانوا يرون معاوية فيلقونه بالبكاء ويذكرون أباهم ليذكروه بدمه المطلول ووعده بالثأر له ثم سكوته عن الثأر بعد أن أمكنه منه ما لم يكن فى امكان أحد من المطلوبين به فى رأيه

قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، وقال غيره مع اختلاف قليـــل فى السياق : « قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة فدخل دار عثمان بن عفان فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت أباها ، فقال معاوية : يا ابنة أخى . ان الناس اعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا . وأظهرنا لهم حلما تحته غضب ، وأظهروا لنا ذلا تحته حقد . ومع كل انسان سيفه ويرى موضع أصحابه ، فان نكثناهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولان تكونى ابنة عم أمير المؤمنين خير من ان تكونى امرأة من عرض الناس »

فالمطالبة بدم عثمان انما كانت قضية قائمة حين كانت لازمة للتحريض على علىّ وبثّ الدعوة والتمكين لمعاوية ، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن فى وسع على ان يفعله سكت عن الثأر وحديثه الا ما كان من قبيل الحوار العقيم فى المجالس ، وقبل من نفسه العذر ضعيفا هزيلا ولم يكن يقبله قويا معززا بالواقع والبينة ممن لا لوم عليه

***

ذلك أيسر ما يقال عن حقيقة الموقف من قضية عثمان ومطالبة معاوية بدمه ، وكل ما فعله معاوية من نصرة عثمان قبل مقتله وبعده فهو ثابت النفع لمعاوية غير ثابت النفع لعثمان ، ولا نجرى وراء النيات وان كان للمؤرخ حق فى النظر اليها قد يحمد منه حيث لا يحمد من القضاء . فان المؤرخ مطالب بتقويم أقدار الرجال وتفسير أسرار الحوادث والتعريف بالأخلاق والضمائر ، ولا ضرر من استقصائه لما وراء الظواهر والدعوات بل الضرر كل الضرر أن يأخذ بالظواهر والدعوات دون استقصاء

وقضاء التاريخ فى موقف معاوية من عثمان انه موقف يسقط كثيرا من التهم التى كان يكيلها لخصومه ، ويسقط كثيرا من الأعذار التى كان ينتحلها لنفسه ، ويوجب على المؤرخ ان ينفــذ من وراء التهم والمعاذير الى تفسير واحــد لوقائع الثورة التى ثارها معاوية باسم عثمان ، فان اصدق البواعث لها انها ثورة فى طلب الملك أعوزتها الحجة فالتمستها من مقتل الخليفة الشهيد

النشأة والتكوين

ولد معاوية لأبوين عريقين قويين ، أخبارهما عنـدنا قليلة متقطعة ، ولكنها من نوع الأخبار التى تدل باللمحة العارضة ، ويغنى القليل منها عن الكثير فى وصف الطبائع والأخلاق ، فنعرف منها أى رجل وأى امرأة كان ابواه من الرجال والنساء

من انباء الجاهلية عن النساء ان هند بنت عتبة ام معـاوية كانت من نساء الاسر التى تعودت ان تستشير بناتها فى أمر زواجهن ، وقد خطبها اثنان فقال لها ابوها : « اما احدهما ففى ثروة وسعة من العيش ، ان تابعته تابعك ، وان ملت عنه حط اليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله . واما الاخر فموسـع عليه منظور اليه فى الحسب والنسب والرأى الاريب ، مدره ارومته وعز عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن اهله

« فقالت : يا ابت : الاول سيد مضياع للحرة ، فما عست ان تلين بعد ابائها وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت وخافها اهلهـا فامنت ؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فان جاءت بولد احمقت ، وان انجبت فمن خطأ ما انجبت . فاطو ذكر هـذا عنى ولا تسمه علي بعد . واما الاخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العفيفة ، وانى لاخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوجنيه »

ونعلم من كلام هند هنا انها امرأة قوية الانوثة يرضيها ان تكون زوجة لرجل جدير بالمهابة والطاعة ولا يرضيها ان يكون زوجها لعبـة فى يديها مطواعا لأمرها

ولم يرد فى اخبار هند خبر غير هذا الا كان فيه ابانة عن جانب من

جوانب هذه الانوثة القوية ، ربما بلغ فى بعض احوالها مبلغ الوحشية ولكنه على هذا يظل وحشية انثوية تشاهد من ضراوة الانسان كما تشاهد من ضراوة الحيوان

كانت تلقب بآكلة الاكباد لانها اكلت كبد حمزة عم النبى عليه السلام بعد ان قتل رجالها فى وقعة بدر . وحزن المرأة على رجالها شديد يشتد مع اشتداد انوثتها ، فاذا كانت فى هذه المثلة وحشية بغيضة فهى وحشية انثوية ، تشتفى بها المرأة اذا جمح بها حزنها وأذهلها عن صوابها ، وليست مما يشتفى به اقوياء الرجال .

***

ولم تنس هند حزنها على رجالها فى حضرة النبى عليه السلام اذ جاءته مع غيرها من النساء يأخذ عليهن عهد البيعة

قال صلوات الله عليه : تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئا ، ولا تسرقن الى ان قال : ولا تزنين

قالت : يارسول الله .. هل تزنى الحرة ؟

ثم قال : ولا تقتلن اولادكن ..

فقالت : اما الاولاد فقد ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا ، فأنت بهم اعلم ..

وان سؤالها : « هل تزنى الحرة ؟ » لمن تلك الاخبار التى قلنا انها تدل باللمحة العارضة ويغنى القليل منها عن الكثير

انه سؤال يدل على الانفة من الزنى لانها ــ كرامة جاه ــ ولان الزنى خلة من خلال الاماء والسبايا لا تعهد فى الحرائر الكريمات ، فالانفة من الضعة هنا أنبر من الاعراض عن الرذيلة ، وقصتها مع زوجها الاول الفاكه بن المغيرة تنبىء عن هذه الانفة وعن هذه العزة ، فكانت اهانتها بتهمة الزنى لا تقبل عندها الغفران ولا تقنعها البراءة منها ، وان شهد بها من تقبل شهادته فى الجاهلية ولا يطلبون على البراءة حجة اقوى عندهم من تلك الشهادة

« اخرج الخرائطى فى الهواتف عن حميد بن وهب قال :

كانت هند بنت عتبة بن ربيعة عند الفاكه بن المغيرة ، وكان من فتيان قريش ، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير اذن . فخلا البيت ذات يوم ، فقام الفاكه وهند فيه ، ثم خرج الفاكه لبعض حاجاته واقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه ، فلما رأى المرأة ولى هاربا ، فأبصره الفاكه فانتهى اليها فضربها برجله وقال : من هـذا الذى كان عندك ؟ قالت : ما رأيت احدا ولا انتبهت حتى انبهتنى . فقال لها : الحقى بأهلك .. وتكلم فيها الناس . فخلا بها ابوها فقال لها : يا بنيـة : ان الناس قد أكثروا فيك فانبئينى بذاك ، فان يكن الرجل صادقا دسست اليه من يقتله فتنقطع عنا المقالة ، وان يكن كاذبا حاكمته الى بعض كهان اليمن ، فحلفت له بما كانوا يحلفون به فى الجاهلية انه كاذب عليها . فقال عتبة للفاكه : انك قد رميت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى الى بعض كهان اليمن . فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنس بهن ، فلما شارفوا البلاد تنكرت حال هند وتغير وجهها ، فقال لها أبوها : يا بنيَّة ، انى قد أرى ما بك من تغير الحال ، وما ذاك الا لمكروه عندك . قالت : لا والله يا ابتاه .. ما ذاك لمكروه . ولكنى اعرف انكم تأتون بشرا يخطىء ويصيب ، فلا آمنه ان يسمني بسيماء تكون علي سبة فى العرب ، فقال لها : انى سوف اختبره لك قبل ان ينظر فى امرك ، فصفر بفرسه حتى ادلى . ثم ادخل فى احليله حبة من الحنطة ، وأوكأ عليها بسير . وصبحوا الكاهن فنحر لهم واكرمهم ، فلما تغدوا قال له عتبة : انا قد جئناك فى امر ، وقد خبأت لك خبيئا اختبرك به فانظر ما هو ؟ قال : برة فى كمرة . قال : اريد ابين من هذا . قال : حبة من بر فى احليل مهر ، فقال عتبة : صدقت .. انظر فى امر هؤلاء النسوة . فجعل يدنو من احداهن ويضرب كتفها ويقول : انهضى . حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال : انهضى غير رسحاء ولا زانية ، ولتلدين ملكا يقال له معاوية . فنظر اليها الفاكه

فأخذ بيدها فنثرت يدها من يده وقالت : اليك .. والله لاحرصن ان يكون ذلك من غيرك ، فتزوجها ابو سفيان فجاءت بمعاوية »

وقصة الكاهن هنا تسقط بحذافيرها ويبقى من خبر هند مع زوجها انه اتهمها فأنفت ان تعود اليه بعد ان اراد هو ان يعيدها ، لانها تغضب لكرامتها ان تعيش مع رجل ينزلها دون منزلتها من حرائر النساء

وينقل عنها فى اسانيد متعددة انها بشرت بسيادة معاوية على قومه فقالت : ثكلته ان لم يسد الا قومه

***

قال الشافعى فيما رواه الطبرى : « قال ابو هريرة : رأيت هندا بمكة كأن وجهها فلقة قمر وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس ، ومعها صبى يلعب ، فمر رجل فنظر اليه فقال : انى لأرى غلاما ان عاش ليسودن قومه . فقالت هند : ان لم يسد الا قومه فأماته الله ... وقال محمد بن سعد : انبأنا على بن محمد بن عبد الله بن ابى سيف ، قال : نظر أبو سفيان يوما الى معاوية وهو غلام فقال لهند : ان ابنى هذا لعظيم الرأس ، وانه لخليق ان يسود قومه . فقالت هند : قومه فقط ؟ ثكلته ان لم يسد العرب قاطبة .. فلما ولى عمر بن يزيد بن أبى سفيان ما ولاه من امر الشام خرج اليه معاوية فقال ابو سفيان لهند : كيف رأيت ؟ صار ابنك تابعا لابنى .. فقالت : ان اضطربت خيل العرب فستعلم اين يقع ابنك .. »

وربما تناثرت الاخبار فى كتب الادب والتاريخ بغير هذه الاحاديث عن هند بنت عتبة زوج ابى سفيان وأم معاوية ، ولا حاجة الى نقلها او تلخيصها جميعا لانها تتفق فى صفة هند بالوسامة والجسامة والاعتداد بالنفس والحسب ، وانما توافق ما نسميه اليوم « بالشخصية » الملحوظة بين ذويها وقومها وليست من عداد الزوجات والامهات المنسيات فى الغمار كما كان سائر النساء فى بيئتها

والقصة التى بدأنا بها هذا الفصل تبدى لنا ابا سفيان فى حياته

البيتية على صورة لم تذكر فى قصة اخرى ، فنعلم انه سيد بيته كما كان سيد عشيرته « وانه شديد الغيرة لا يرفع عصاه عن اهله »

وبقية القصة الاخرى تبدى لنا ابا سفيان فى صورة من صور الحياة البيتية ، يقول من شاء انها حياة تقدير ويقول من شاء انها حياة تقتير

فقد وصفته هند بأنه رجل « مسيك » وانها « كانت تصيب من ماله الهنة والهنة ولا تدرى أكان ذلك حلالا لها أم حراما »

وكان أبو سفيان شاهدا فقال : اما ما اصبت منه فيما مضى فأنت منه فى حل ..

أما كلام عتبة فى غير ما تقدم من صفات أبى سفيان فهو من المشهور المتردد فى أنباء الجاهلية والاسلام ، فقد كان سيدا « موسعا عليه منظورا اليه فى الحسب الحسيب والرأى الاريب ، مدره ارومته وعز عشيرته ..» كما قال عتبة فى تخييره لبنته بين الرجلين

***

فمعاوية اذن ينتمى الى ابوين قويين فى عشيرة قوية ، ولعله ورث من جانب أمه اكثر مما ورث من جانب أبيه ، فهو أشبه بها فى تكوين جسمه ، وأشبه بها فى وسامة ملامحه ، وأشبه بأصولها المعروفة فى خلق الاناة وبطء الغضب وايثار المطاولة والمراوغة على المعارك والحروب

فأبوها عتبة كان قائد قريش فى وقعة بدر ، وكان رأيه الذى أصر عليه ولم يثنه عنه غير اجماع مخالفيه أن تنصرف قريش من غير قتال ، وان يتركوا كل رجل منهم ومن المسلمين يرجع الى عشيرته ، وينظروا ما عسى ان يكون من شأنهم جميعا بعد ذلك

وقد يرى بعض الناظرين فى الوراثة ان المرأة التى اشتهرت باسم « آكلة الاكباد » لم ترث الاناة وبطء الغضب من أبيها ، ولم تورث ابنها هذه الخليقة فيما أورثته من خلائقها

وانه لرأى فيه نظر ، أو هو جدير بالنظر ، فان هذه الضراوة ليست من تلك الاناة ..

ولكننا حريون ان نذكر ان « الغيظ » غير الغضب فى دخيلتـه وفى مدّته وأجله ..

فقد يشتهر الانسان بأنه من أهل « الغيظ » ولا يشتهر بأنه من أهل الغضب ، وقد يزول الغضب لساعته ويبقى الغيـظ سنوات فى طوية صاحبه ..

هذا فيما ينطوى عليه الشعوران ..

وغير هذا ان لوعة المرأة على رجالها تخالف لوعة الرجل على أقرانه ، وان شفاء الغل بأكل كبد القتيل جماح انثوى لا يضارعه جماح مثله فى الرجال ... فلعلها فى طول الاناة كأبيها أو كابنها ، ولكنها فى مثل هـذه اللوعة لا تشبه هذا ولا ذاك ولا يشبهها هذا ولا ذاك

***

ويجوز مع هذا كله ان يكون معاوية وارثا بعض الخلق من جـده لأمه وغير وارث هذا الخلق منها ، لأن الوراثة قد تنقطع بين الجنسين فتكون الخليقة الموروثة فى الجدود ولا تكون فى الأمهات ..

أما الوراثة التى لاشك فيها فهى وراثة تكوينه الجسدى من أمه ، وهى وراثة طالما أشار اليها معاصروه وذكروا فيها اسم أمه ، ولم يذكروا اسم أبيه ، وقد ترهل من فرط الجسامة فى كهولته ولم يكن لأحد من السفيانيين مثل هذا الترهل فى الكهولة أو الشباب

وعلاقة هذا التكوين بأخلاقه وأعماله تتضح من سياسته كلها فى أيام الخلافة وأيام الولاية من قبلها ، فاذا صدق عليها وصف غالب عليهـا فوصف السياسة « الجالسة » التى تدبر وتدير وتترك المساعى والزحوف للعاملين المأمورين ..

كان معاوية « أبيض جميلا طويلا أجلح ... وقد أصابته لوقة فى آخر عمره فكان يستر وجهه »

وروى الطبرى باسناده عن ابن عمرو انه قال : ما رأيت أحدا أسود من معاوية . وسئل : ولا عمر ؟.. فقال : كان عمر خيرا منه وكان معاوية

أسود منه ..

ونقل عن العوام بن حوشب انه كان يقول : « ما رأيت احدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية . قيل : ولا ابو بكر ؟ فقال : كان ابو بكر وعمر وعثمان خيرا منه وهو أسود »

وهذا السؤدد ليس بالغريب من سمات رجل ورث السيادة من أبويه ، وناط بها حقه وحق عشيرته فى الرئاسة ، وذارت مساعيهم وظواهرهم وبواطنهم كلها على هذا السؤدد وعلى الغيرة عليه جيلا بعد جيل

***

وقدمنا ان هندا كانت تعاف الزنى انفة ولا تعافه ورعا ونزاهة ، ولا نخطىء اذا فهمنا من بعض كلام ابى سفيان انه كان يتورع عن الكذب بين من يعلم كذبه لأنه يأبى لمروءته ان يصغره احد لكذبه وان لم يعلن ذلك بلسانه . وهكذا قال حين سئل فى بلاد الروم عن النبى عليه السلام . فانه سمع سائله يحذره من الكذب فأنف ان يكذب على مسمع من شهود سكوت ! ..

ومدار الطموح كله فى نفس معاوية على هذه الخصلة التى جعلت تراث القوم كله رهينا بمزاياهم الاجتماعية وجعلت هـذه المزايا كلها رهينة بمظاهر الرئاسة والسيادة ..

ونحن نعرف ما تعلمه فى صغره مما كان يعلمه فى كبره . اذ لم تجر عادة الرواة والمؤرخين فى الجاهلية بالتحدث عن الأطفال الصغار الا ما جاء عرضا فى أثناء الكلام عن آبائهم وكبارهم ، ولا استثناء فى ذلك لأبناء الأسر والبيوتات ومن ترشحهم احسابهم لمكان الرئاسة بعد بلوغهم مبلغ الرجال . ولعله لم يكن اهمالا من الرواة والمؤرخين واستصغارا لأمر أولئك الاطفال ، وانما كان سكوتا منهم عن أمر معلوم على وجه التعميم يشترك فيه الناشئة من ابناء البيوتات جميعا ولا ينفرد فيه احد منهم بتعليم خاص لوظيفة خاصة

وقد تعلم معاوية القراءة والكتابة والحساب ، وتتفق الاخبـار على

كتابته للنبى عليه السلام ولا تتفق على كتابته للوحى ولا على حفظه لآيات من القرآن تلقاها من النبى كما كان كتّاب الوحى يتلقون الآيات لساعتها ، والأرجح انه لم يكن معروفا بحفظ شيء من كتابة الوحى فى أيام جمع القرآن الكريم ، ولو علم عثمان ـ وهو من ذوى قرابته ـ ان عنده مرجعا من المراجع يثوب اليه لرجع اليه كما رجع الى غيره

وتعليم معاوية فيما عدا ذلك من سماع أشعار العرب وأمثالهم والالمام بأخبار أيامهم كتعليم غيره من علية قومه . الا انه كان على شغف خاص بالاستماع الى سير الملوك ووقائع الأمم وأطوار الدول الغابرة ، وربما قرئت له هـذه السير من كتب يونانية أو فارسية يقرأها له من يعرف لغاتها ، وقد سمع بعبيد بن شرية الجرهمى وعلم انه يعي تواريخ التبابعة والأكاسرة فأرسـل يستقدمه من صنعاء وأمره بكتابة ما وعاه من تلك التواريخ ، فألف له كتاب الملوك وأخبـار الماضين ، وهو أول كتاب التواريخ ، فألّف له كتاب الملوك وأخبـار الماضين .. وهو أول كتـاب يحدّث عن فحواه ..

***

وبلاغة معاوية فى كلامه بلاغة سوية لا تعلو ولا تسف عن بلاغة أمثاله ونظرائه : يبين عما يقصد ويحتفل بالقول فينقاد له طيعه الميسر للعربى الفصيح من أبناء عصره ، ومن رسائله المحفوظة رسالة الى زياد بن أبيه يتوعده فيها ، ويدعوه الى الطاعة وأخذ البيعة ممن يليه ، ويقول منها : « ... انك عبد كفرت النعمة واستدعيت النقمة ، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وان الشجرة لتضرب بعرقها وتتفرع من أصلها ، لا أم لك ، بل لا أب لك ، قـد هلكت وأهلكت وظننت انك تخرج من قبضتى ولا ينالك سلطانى ، هيهات !.. ما كل ذى لب يصيب رأيه ، ولا كل ذى رأى ينصح فى مشورته . أمس عبـد واليوم أمير ... خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية . واذا أتاك كتابى هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة واسرع الاجابة ، فانك ان تفعل فدمك حقنت ونفسك تداركت ،

والا اختطفتك بأضعف ريش ونلتك بأهون سعى . وأقسم قسما مبرورا الا اوتى بك الا فى زمارة تمشى حافيا من أرض فارس الى الشام ، حتى أقيمك فى السوق وأبيعك عبدا وأردك الى حيث كنت فيه وخرجت منه والسلام .. »

ومن ردوده المحفوظة رده على الامام علىّ حين دعاه الى البيعة يقول فيه : « ... لعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان ، فان فعلت كانت شورى بين المسلمين ، ولعمرى ما حجتك على كحجتك على طلحة والزبير لأنهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق ، لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام .. وأما شرفك فى الاسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعك من قريش فلست أدفعه .. »

***

وكان يتكلم مرتجلا فيحسن الجواب فى مقامه ، ومنه جوابه لعدى بن حاتم حين أتاه يدعوه الى بيعة على ، فسمع منه دعوته على ملأ من صحبه ، وأجابه قائلا :

« .. كأنما جئت مهددا ولم تأت مصلحا . هيهات يا عدى ! كلا والله . انى لابن حرب ما يقعقع لى بالشنان . وانك والله لمن المجلبين على ابن عفان رضى الله عنه وانك لمن قتلته وأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به . هيهات ياعدى بن حاتم . لقد حلبت بالساعد الأشد .. »

وكان يحتفل بتحضير الكلام فيقول كما قال فى صفين : « الحمد لله الذى دنا فى علوه وعلا فى دنوه ، وظهر وبطن ، وارتفع فوق كل ذى منظر . هو الأول والآخر . والظاهر والباطن . يقضى فيفصل ويقدر فيغفر ويفعل ما يشاء اذا أراد أمرا أمضاه واذا عزم على شىء قضاه ،

لا يؤامر أحدا فيما يملك ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون . والحمد لله رب العالمين على ما أحببنا وكرهنا . وقد كان فيما قضاه الله ان ساقتنا المقادير الى هذه البقعة من الأرض ولفت بيننا وبين أهل العراق فنحن من الله بمنظر . وقد قال الله سبحانه وتعالى : ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد .. أنظروا يا أهل الشام ! انكم غدا تلقون أهل العراق فكونوا على احدى خصال ثلاث : اما أن تكونوا طلبتم ما عند الله فى قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادكم حتى نزلوا بيضتكم ، واما أن تكونوا قوما تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم ، واما أن تكونوا قوما تذبون عن نسائكم وأبنائكم . فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا ولكم النصر وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين » ..

***

وهذه خطبة ربما أضيف اليها بعض العبارات المستحدثة بعد عصرها ، كالمقابلة بين العلو والدنو وبين القضاء والقدر ، ولكنها فيما عدا ذلك لا تستغرب من زمانها ولا موضعها ، وقد خطب معاوية لا شك فى ذلك ، وما بقى من خطبه غير مستغرب من زمانه وموضعه فهو فى طبقة هذه الخطبة وعلى نهجها . ومنه آخر كلامه قبل موته حيث قال :

« أيها الناس . ان من زرع قد استحصد . وقد طالت عليكم امرتى حتى مللتكم ومللتمونى ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ، وانه لا يأتيكم بعدى الا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى الا من كان خيرا منى ؛ وان مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه .. اللهم انى أحببت لقاءك فأحبب لقائى » ..

وتحفظ له الكلمات من جوامع الكلم ومن التعبير المونق الجميل ، ولكنها غير كثير . فمنها قوله : « ان السلطان يغضب غضب الصبى ويبطش بطش الأسد » وقوله : « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . أرخيها اذا شدوها وأشدها اذا أرخوها »

ودخل عليه عمرو بن العاص فرآه يرقص احدى بناته ، وكأنه لمح منه تعجبا لفعله فنظر اليه وهو يقول : هذه تفاحة القلب

فلم يكن من المفحمين ولا من ذوى السجية فى القول ، وقد سمع غير مرة يقول ما معناه : انما شيبنى حذر الخطأ فى الجواب

وندر بين معاصريه من النابهين من لم تنسب اليه أبيات من الشعر تصح أو لا تصح فى النقل والرواية

وقد نسب الى الحسن بن على رضى الله عنه انه عيره أبياتا كتب بها الى أبيه يحذره من الاسلام ، وهى :

يا صخر لا تسلمن يوما فتفضحنا	بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا
خـالى وعمى وعم الأم ثالثهـم	وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركنن الى أمر تكلفنـــا	والراقصات به فى أمرنا الخرقا
فالموت أهون من قول العداة لقد	حاد ابن حرب عن العزى اذا فرقا

والحسن أحق أن يتحرى ما يحفظه وما ينسبه ، وما كان معاوية على مبعدة من أبيه فيكتب اليه ، ولا كان من دأب معاوية أن ينصح أباه وقد عاش الى آخر أيامه يشاوره ولا يبرم أمرا دونه ، وهى ــ بعد ــ أبيات ليست من نفس الشعر فى صدر الاسلام ولكنها تشبه المقطوعات التى فاضت بها الكتب الموضوعة فى حرب صفين وتكاد تلقى فى روع القارىء انهم فى ذلك العهد لم يفوهوا بسطر من النثر الا ومعه سطر منظوم

***

ومن قبيل هذه الأبيات أبياته التى قيل انه بعث بها الى ابن الزبير مع رسالة يدعوه فيها الى مبايعة يزيد بولاية العهد ، وهى :

رأيت كرام النــاس ان كف عنهمو	بحلم رأوا فضــلا لمن قد تحلما
ولا سيما ان كان عفوا بقـــدرة	فذلك أحرى أن يجل ويعظمــا
ولست بذى لؤم فتعـــذر بالذى	أتاه من الأخـلاق ما كان ألأما
ولكن غشــا لست تعـرف غيره	وقد غش قبل اليوم ابليس آدما
فما غش الا نفســـه فى فعـــاله	فأصبح ملعونا وقد كان مكرما

وانى لأخشى أن أنالك بالـــذى أردت فيخزى الله من كان أظلما

فليس هذا الشعر من نسق عصره ولا من عادات رجاله فى مقام كهذا المقام ، ولكن الأمر الذى يعهـد فيهم مع روايتهم للشـعر والمثل انهم يستشهدون بالأبيات فى موضعها ويتأسون بها فى موقعها ، وكذلك قيل ان معاوية ذكر أبيات ابن الأطنابة ساعة فراره من المعركة ليـلة الهرير فعاوده الثبات وجعل يترنم بها ويسمعه من حوله يعيد منها :

وقولى كلمـا جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

وقيل انه تمثل شعرا وهو يجود بنفسه ، فقال :

وتجلدى للشـــامتين أريهمو انى لريب الدهر لا أتضعضع

ثم قال :

واذا المنيـــة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمـة لا تنفـع

وقيل غير ذلك مما لا داعى للشك فيه اذا كان محصوله كله انه كان يحفظ الأشعار والأمثال ويستشهد بها فى مواطنها على سنة نظرائه من العرب أجمعين ..

ولنا ــ بعد ــ أن نفهم أنه نشأ فى الجاهلية نشأة أبناء الأسر وأصحاب الرئاسة الموروثة ، وتعلم ما يتعلمونه وتدرب على دربتهم التى ألفوها . الا أنه كان الى تربية التجارة والتدبير أدنى منــه الى تربية الفروسـية والنضال ، فلم يؤثر عنه من فعال الفروسية بعد بلوغه مبلغ الرجال فعل يميزه بدربة خاصة على فنونها المعهودة فى زمنه كالمسايفة واصابة الهدف والسبق على متون الخيل والصمود للأقران فى المبـارزة ، ولعل تربيته للفروسية لم تزد على القدر الضرورى الذى يعاب الجهل به ولا يبرز الى مكان التنويه والتمييز .

***

وهذا القسط من التربية كاف لسروات الجاهلية من العاملين فى مثـل عمله وعمل أبيه ، وهو تدبير التجارة القرشية وحمـل اللواء لحمايتهـا

والاستعانة بمن يصلحون لحراستها ويذبون عنها بالسلاح اذا وجب الذب عنها ..

أما بعد الاسلام فهذه التربية ، أو هذه النشأة ، تقترن بسؤال آخر عن نصيبه من فقه الدين والثقافة الاسلامية ، ويكاد يدعو الأمر هنا الى سؤال غير هذا السؤال فى أمر الدين من أساسه ، فان أناسا من الغلاة قد شككوا فى اسلامه ، بل جزموا باسلامه على دخلة ومداهنة ، فهل كان لهذا الشك من مسوغ فى عمله أو كلامه بعد اسلامه مع أبيه فى عام الفتح كما هو معلوم ؟ ..

لقد تأخر اسلامه كما تأخر اسلام أبيه ، فأسلما معا فى عام الفتح وهو فى نحو الثالثة والعشرين ، وليس هذا التأخر بموجب للشك فى عقيدته ، لأنه يحدث فى كل دين وفى كل دعوة ، وينقسم الناس فى جميع الدعوات الدينية والفكرية الى مبادرين ومترددين ومتلبثين متلكئين لا يستجيبون لها الا مع آخر مستجيب ، ولا يندر بعد ذلك أن يكون المتأخر أصدق ايمانا وأثبت عقيدة من المبادر المتقدم ، وليس من الجائز أن تتخذ العادة المطردة فى الاستجابة للدعوات حجة على نقيضها . فما كانت الدعوات قط الا هكذا أو لا تكون ..

***

ومعاوية بعد اسلامه لم تثبت عليه كلمة ولا فعلة تنقض تصديقه بدينه ورعايته لفروضه وشعائره : كان يصلى ويصوم ويزكى ويحج ويقرأ القرآن ويستمع اليه ، وكانت كل لفظة فاه بها وأحصيت عليه فى مرض الوفاة تدل على الايمان بلقاء الله وعلى الايمان بالجزاء فى العالم الآخر ، ومما تواتر من أحاديث الملازمين له فى ساعاته الأخيرة انه كان يحتفظ بقلامة من ظفر رسول الله وشعرات من لحيته الشريفة أخذها من وضوئه وما زال محتفظا بها حتى أوصى بأن تدفن فى كفنه ، وكل أولئك قد يسرى اليه الظن ممن تغالبه الظنون . الا المعيشة بين الأهل والبنين حيث ينطلق المرء على سجيته وتبدر الفلتات على الرغم من طول الحذر والمراوغة ممن لهم

باطن غير ظاهرهم فى العقيدة الدينية ، ولا تتصور أن رجلا له باطن وظاهر فى أمر العقيدة ينشأ من بيته مؤمنان تقيان كخالد ومعاوية الثانى حفيدته.. فان اخفاء البواطن عشرات السنين حيث يعيش المرء على رسلته أمر يفوق طاقة الانسان ..

قلنا فى عقيدة صاحبه عمرو بن العاص انه « مسلم لا شك فى اسلامه ولا شك فى طبعه ولا شك فى اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعا فى كل دين من الأديان ورأى من الآراء ، فلما فتحت له الحيطة باب التفكير فى الاسلام أقبل عليه وود لو يغنمه بريئا من عقابيل الجاهلية ، لأنه نفض يديه منها وأيقن بضلالها

« قال وقد اعتزم لقاء النبى عليه السـلام ما فحواه : فلقيت خالدا فقلت : ما رأيك ! قد استقام المنسم والرجل نبى . فقال خالد : وأنا أريده . قلت : وأنا معك .. وكنت أسن منهما فقدمتهما لأستدبر أمرهما . فبايعا على أن يغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما ، فأضمرت أن أبايعه على أن يغفر لى ما تقدم وما تأخر . فلما بسط يده قبضت يدى ، فقال عليه السلام: مالك يا عمرو ! قلت : أبايعك يارسول الله على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى . قال : ان الاسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما . فبايعته ، ووالله ما ملأت عينى منه ولا راجعته بما أريد حتى لحق ربه حياء منى »

وقلنا قبل ذلك : « ومن سيرة عمرو بعد اسلامه نعلم انه كان يتعبد ويتصدق ويستغفر من ذنوب وقع فيها ويقيم الصلاة ويسرد الصـوم ويعيش بين ذويه مسلما وكلهم مسلمون »

***

ويقال فى معاوية كل ما يقال فى عمرو مع اختلاف الطبائع وبقاء لوازمه أو ملازماته فى أعمق أعماق الطوية على غير وعى من صـاحبها حيث يستوحيها مع العقيدة فى أعماله الظاهرة وسرائره الخفية

ومن حيل الطبع فى العلاقة بينه وبين ربه انها لا تخرج عن وحى سليقته فى العلاقة بينه وبين الناس

كان حريصا على أن يبرىء ذمته ويلقى تبعته بما وسعه من حيلة وحول ، وهكذا كان اجتهاده فى نفى التبعة عنه بين يدى الله

أنظر مثلا الى حيلة طبعه حيث أراد أن يبرأ الى الله من أخذ البيعة بعده لابنه يزيد . قال فى احدى خطبه « اللهم ان كنت انما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه ،وان كنت انما حملنى حب الوالد لولده وانه ليس لما صنعت به أهلا فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك »

وكأننا به يسائل نفسه بعد ذلك : « ماذا بقى من التبعة على فى عقابيل هذه البيعة ؟ غاية ما أرعى به حق الله فى أمر ولدى الذى أحبه أن أسأل له الموت ان كان غير أهل لولاية العهد بعدى . فان كان الله قد أبقاه ولم يقبضه فقد صنعت ما يستطيعه والد يظن بينه وبين نفسه أنه قدم حب ولده على رعاية حق الله »

***

ومن حيل الطبع فى خطبته الأخيرة قوله : « ان من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . اللهم انى أحببت لقاءك فأحبب لقائى »

حجة مقبولة عند الله . مخلوق يحب أن يلقى خالقه فالله يحب أن يلقاه

واختلاف طبائع الناس فى الدين على غير وعى منهم لا معنى له الا أنهم يتدينون على حسب طبائعهم ، وليس معناه انهم يناقضون الدين ولا ينطوون فى بواطنهم عليه

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان معاويه يعلم من فقه دينه ما لا بد أن يعلمه رجل كتب للنبى وحضر مجالسه وحضر عهده كله وعهد خليفته من بعده ، ومرت به الأقضية التى فصل فيها ولاة الأمر على مسمع منه ، وراجع الفقهاء من الصحابة فيما أشكل عليه بعد ذلك من أشباه تلك الأقضية ، فهو على نشأته الجاهلية والاسلامية لم يقصر فى معارف دينه ودنياه عن الطليعة بين نظرائه من السادة الأمويين والقرشيين

الأعمال

منذ الفتح الاسلامى لم يعزل وال واحد من ولاة الشام لشكاية الرعية منه ، ولم يتول العراق وال واحد لم يعزل للشكايات الكثيرة التى كانت تتقاطر على دار الخلافة من رعيته

ويزول العجب بعض الشىء اذا نحن قسمنا القطرين قسمين آخرين : قسم هو حصة الدولة البيزنطية ، وقسم هو حصة الدولة الفارسية

فالشام التى كانت حصة الدولة البيزنطية كانت طويلة العهد بالنظم الادارية والحكومية ، وكانت فيها مدن من عواصم الدولة الكبرى وعليها رؤساء من المميزين فى الدولة بشارات السياسة والدين ، وقد فتحها المسلمون على شروطهم المحدودة للذميين المعاهدين ، لأن أهلها كانوا جميعا من أهل الكتاب ، فلما استقر الأمر للدولة الاسلامية فيها بعد زوال الدولة البيزنطية لم تكن من جانب الرعية مقاومة اجماعية ، ولم يكن على شروط المعاهدة خلاف بين الحكام والمحكومين

وكانت الشام كذلك أقرب الى الاستقرار لأن حدودها جميعا كانت فى بلاد الدولة الاسلامية ، الا الجانب الذى يلى تخوم الدولة البيزنطية ، ولم يكن منه خطر كبير بعد صدمة الهزيمة الكبرى التى منى بها هرقل وودع بعدها تلك البلاد وداع الأبد ، وكان كل خطر من هذا الجانب — عظم أو صغر — تتلقاها الدولة الاسلامية بجيوشها البرية وأساطيلها البحرية فى جملتها ، فلم تكن الشام منفردة بالدفاع اذا هجم الروم برا أو بحرا ، بل كانت الولايات من افريقية ومصر ومن الجزيرة فى بعض الأحايين تتجمع لدفع الهجمات أو لاتقائها قبل وقوعها

وكانت سياسة عمر فى تمكين الفتوح وتحصينها أنفع السياسات للشام

خاصة ، اذ كانت خطته كما جاء فى فتوح البلدان للبلاذرى انهم « كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها من المسلمين ، فان حدث فى شيء منها حدث من قبل العدو سربوا اليهـا الامداد » ..

فانتظمت معاقل الدفاع عن الشـام على شواطئها وعند أطرافهـا ، وأحيطت من كل جانب بالمدافعين عنها من جند الدولة الاسلامية فى الشرق والشمال والجنوب

***

ولا نحذرن شيئا كما ينبغى أن نحذر الاشاعات التى نسميها بالاشاعات التاريخية ، ومن قبيلها اشاعة الضعف عن عثمان بن عفان رضوان الله عليه ، فقد جنت هذه الاشاعة على النقد التاريخى حتى خيل الى الناس انه لم يعمل عملا قط اتسم بالقوة أو خلا من الضعف ، وهو اسراف فى الرأى كاسراف جميع الاشاعات من قبيلها ، لأن سياسة عثمان البحرية كانت أقوى السياسات وكان فيها قدوة لمن بعده ولمن يكن مقتديا بأحد قبله ، ونحسبه عرف خطر الشواطيء والموانيء من عمله فى التجارة ، فأصلح ميناء جدة فى الحجاز ولم يغفل لحظة عن الشواطيء المفتوحة فى افريقية ومصر والشام ، ولا يقال عن حملة واحدة من حملات البحر انه كان مسوقا اليها برأى غيره ، فانه — على ما هو معلوم من سبق معاوية الى الاستئذان فى فتح قبرس أيام الفاروق — لم يأت العزم الأكبر فى هذه الحملة الا من جانب عثمان ، اذ كتب الى معاوية يستوثق من جده فى فتح هذه الجزيرة وتأمين الملاحة حولها فأمره كما جاء فى البلاذرى بأن يركب البحر اليها ومعه امرأته « فان ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونا لك والا فلا »

كانت هذه حال الشام يوم تولّى معاوية اقليما منها على عهد الفاروق ثم تولاها جميعا على عهد عثمان

وبخلاف ذلك كانت حالة العراق من جميع الوجوه . فلم تكن فيها

معاهدات دمية تدين الرعية ، ولم تكن حدودها الشرقية والشمالية آمنة كل الأمان فى زمن من الأزمان ، فكانت ــ من البصرة الى أرمينية الى خراسان ــ عرضة للحملات والفتن فى كل آونة ، وكانت الدولة الاسلامية لا تفرغ لها كل قوتها كما أفرغتها للدفاع عن الشام أمام الدولة البيزنطية ، لأن دولة فارس ذهبت بذهاب ملكها فلم يحسب لها المسلمون حساب القوة المتجمعة ، وسلكوا فيها مسلك التأهب للمفاجآت الطارئة من هنا وهناك ، وليس فيها ما يشغل بال دولة فى مواجهة دولة أخرى

***

وعلى هذا كان العراق ، أو كانت الجزيرة كلها ، أطرافا مهملة فى أيام الدولة الفارسية ، فلم يكن لها نظام من نظم الادارة المتناسقة يسير عليه الحكم كما سارت الحكومة الادارية فى الشام ، ولم تتضح علاقات الحاكمين بالمحكومين فى أنحائها كما اتضحت مع المعاهدين الذميين

وأعضل من ذلك كله بين مشكلاتها ان الفتح الاسلامى قد جاءها بمجتمع مختلف منقول اليها بحذافيره من سادته وقادته الى سوقته ومواليه ..

فقد انتقل اليها رهط من القادة وذوى الرئاسة ليقيموا فيها ويزرعوا الأرض ويتجروا بين أنحائها ، وعاش الى جانبهم ألوف من الجند المقيمين والجند العاملين ، وكلهم لهم أعطية من بيت المال ، يعطاها من عمل فى الفتوح الأولى ومن يعمل فى الغزوات التالية ، وكان تقسيم الأعطية مشكلة من مشكلات هذا المجتمع المنقول . فمن بقى عاملا فى الغزوات يحسب له حقا يستكثره على سابقيه من المجاهدين المقيمين ، وأعطية بيت المال تأتى كلها من المدينة أو تصرف كلها بتقديرها ، ويلام الولاة فى نظر الجند لأنهم لا يفرقون فى الاحصاء والتقدير بين الفريقين ، ويلامون لأنهم يعيشون بين أقربائهم وعشيرتهم ويتعرضون لشبهات المحاباة بالحق أو بالباطل ، ولا تنقطع الشكاية من الولاية الا ريثما يعزل واحد منهم ويتلوه خلف له يأخذ فى العمل فيأخذه القوم كرة أخرى بالتهم والشبهات

وقد ثقلت أعباء هذه الشكايات على كاهل الفاروق وهو فى هيبته وعزمه واقتداره على فض المنازعات فلم يكن يرى فى جوانب المسجد مغموما الا علم أصحابه انه مشغول بشكاية من شكايات الرعية أو الجند فى العراق ..

***

وبدأ معاوية أعماله العامة فى الشام وهى بتلك الحالة من الاستقرار بالقياس الى جميع الولايات الاسلامية الأخرى ، وجاء عمله فيها تدريجا من معاونته لأخيه يزيد الى قيامه على ناحية من الشام خلفا له الى قيامه على الشام كلها فى أيام عثمان ، فكان كل عمل من هذه الأعمال بمثابة « فترة تمرين » للعمل الذى يليه ويزيد عليه فى السعة والتكليف ، وكانت الأعمال « الحربية » أو أعمال التحصين يتولاها من حوله رجال من صناديد الحرب كعبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن خالد ، فلم يقم قط بقيادة حربية مستقلة وصل بها الى نتيجة حاسمة أو ناجحة

ثم نشبت الفتنة الوبيلة فى خلافة عثمان وهو بمعزل عنها ، وقتل عثمان فاتخذ من مقتله ذريعة للخروج على الامام علي وانكار بيعته ، وأسرف كل الاسراف فى التذرع بهذه الذريعة قبل استقلاله بالخلافة فما كان له من مسوغ يتعلل به غير مقتل عثمان يردده فى كل حديث وفى كل خطاب وفى كل جواب ، وينكر عليه بعض صحبه أن يمنع عليا وأصحابه الماء فى وقعة صفين ، فيجد المعذرة له فى صنيعه انه يمنعهم الماء لأنهم منعوا عثمان الماء وهو محصور

واستند الى آية من القرآن الكريم فسرها برأيه ليقنع أنصاره انه على حق وانه منصور ، وهى قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق . ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا »

وعلى قدر اللهج بهذه الفاجعة قبل استقلاله بالخلافة سكت عنها وأغفلها بعد ذلك فلم يعد اليها قط الا ليعتذر الى قرابة الخليفة المقتول

من سكوته واغفاله ..

وينبغي هنا أن نذكر أن معاوية لم يكن بحاجة الى قدرة خارقة لاثارة الشام باسم الخليفة المقتول . فان عثمان كانت له مصاهرة فى بنى كلب أكبر قبائل البادية فى الشام ، وكانت زوجه نائلة بنت القرافصة تصف مصرعه فى رسائلها وتبعث بقميصه المخضب بالدم وأصابعه المبتورة فترفع على المنبر حيث يراها شهود المسجد فى كل صلاة ، وكان جند الشام بعيدين عن معمعة الفتنة لم يسمعوا صوتا من أصوات الثورة على الخليفة المقتول ولا حجة من حجج السخط على حكمه ، وكانوا بين معسكرين أقربهما اليهم والى عملهم معسكرهم فى ولاية معاوية ، ومنهم طائفة كان يستبقيها لديه ولا يأذن لأحد منها أن يبتعد من جواره برهة الى معمعة الفتنة مخافة عليه من الاستماع لحجج المخالفين فيداخله الشك فى دعوته ودعواه ..

***

ولم ينته معاوية فى نزاعه لعلى الى موقف فصل بالحرب أو بالسياسة ففى وقعة صفين حلت الهزيمة بجيشه ليلة الهرير وأيقن بسوء العاقبة اذا استمرت مدة القتال ، فأشار عليه عمرو بن العاص بحيلة المصاحف فرفعوها فى اليوم التالى ونادوا بالتحكيم الى كتاب الله ، فاختلف جند الامام واضطر فى جنده المختلف الى قبول التحكيم

ومن المؤرخين من يبالغ فى خطر التحكيم ويجعل له شأنا فى عواقب النزاع لم يكن له ولا كان من المعقول أن يكون له بحال

فهذا التحكيم لم يكن ليبدل تلك العواقب على أية نتيجة من النتائج انتهى اليها ، سواء اتفق الحكمان على خلع على ومعاوية معا أو اتفقا على خلع أحدهما دون الآخر ، أو لم يتفقا على شيء

ففى كل حالة من هذه الحالات كانت العواقب صائرة الى ما صارت اليه بلا اختلاف ، وكان المعسكران يمضيان فى طريقهما الذى مضيا فيه فلا يسلم أحدهما لصاحبه برأى يمليه عليه الحكمان متفقين أو غير متفقين

انما وقعت الواقعة الحاسمة بمقتل على رضوان الله عليه دون صاحبيه ، ثم آلت خلافته الى ابنه الحسن فى معسكر مضطرب بين الخوارج والشيعة والموالى والأتباع الذين لا يعملون عمل الأتباع طائعين ولا يعملون عمل الرؤساء مقتدرين مضطلعين ، وورث الحسن معسكرا لم يطل عليه عهد الولاء لأحد قط ليناضل به معسكرا لم يقع فيه خلاف قط منذ الفتح الأول ، الا الخلاف الذى كان يريده معاوية ويعمل له حذرا من مغبة الاتفاق عليه ..

***

ولما امتنع طلب البيعة لغير معاوية بويع معاوية وحده او بقى معارضوه متفرقين لا يلوذ فريق منهم برئيس يرشح نفسه لخلافة او ينهض لها بحجة . فترك هؤلاء المتفرقين فى العراق يضرب بعضهم بعضا او فى الحجاز لا يعملون شيئا غير الترقب والانتظار

ولا شك ان معاوية قد استفاد فى امارته منذ اللحظة الاولى من كل نظام مفيد فى حكومة الشام ، فأبقى ما لا غنى عنه من نظم الادارة وتوسع فيه وزاد عليه ، وابطل ما لا بد ان يبطل مع الدولة المتبدلة والدين الجديد ..

وقد وكل الادارة المالية الى القائمين بها فى ايام الدولة البيزنطية وعلى رأسهم سرجون بن منصور ثم ابنه منصور بن سرجون ، ووكل الادارة الكتابية الى عبد الله بن اوس الغسانى من وجوه الغساسنة اصحاب الملك القديم فى الشام ، ونظم البريد وتوسع فيه للاطلاع على اخبار الاقاليم وابلاغ الاخبار اليها على انتظام وترتيب ، وأنشأ ديوان الخاتم لمراجعة الحساب بين العاصمة والولايات ، وعزز بناء الاسطول بتجديد مصانع السفن فى عكاء ، واستجلب من فارس كل عامل نافع فى مسائل الخراج والاحصاء ، وعنى بتسجيل المواليد والوفيات لتقسيم الاعطية والأرزاق ، وجعل للجند عملا يصرفهم عن البطالة والشقاق فداول بينهم وبين مواعيد الصوائف والشواتى وهى مواعيد الحراسة والغزو فى بلاد

الروم من تخوم الشام الى ارباض القسطنطينية ، وكان يحرك الاساطيل من حين الى حين لتهديد القسطنطينية وسواحل الدولة البيزنطية ليشغلها بالدفاع عن التفكير فى الهجوم

وبرزت حزامة معاوية فى تدبير شئون ملكه مع ما اشتهر به ساسة العصر — فى اقبال الدولة والدنيا — من الكلف بمناعم العيش والتهافت على المتع والملذات ، بل مع اشتهار معاوية نفسه بمثل هذا الكلف فى بيته وفيما يشهده الناس من ابهته وزينته ، فكان عظيم العناية بأطايب الخوان كثير الزهو بالثياب الفاخرة والحلية الغالية ، وكان يأكل ويشرب فى آنية الذهب والصحاف المرصعة بالجوهر ، ويأنس للسماع واللهو ولا يكتم طربه بين خاصة صحبه « لأن الكريم طروب »

***

الا انه كان على هذا كله لا يضيع عملا فى سبيل لذة ولا ينكص عن مشقة تواجهه من اجل متعة تغريه ، وربما أمر بايقاظه ساعات من الليل لمراجعة الرسائل والشكايات من اطراف الدولة القاصية ، وربما جلس للمظالم نهارا فاستمع الى الجليل والدقيق منها ونظر فى بعضها وأحال بعضها الى من يناط بها ويحاسبه على النظر فيها ، وكانت له قدرة على ضبط هواه حين يريد ، وقدرة على تصريف وقته كما يشاء ..

ولما برزت منه هذه القدرة للشاهد والغائب أتيحت له حجة لطلب الخلافة اغنته عن اللجاجة بمظلمة عثمان ، فكان يخطب فيقول : « انى ان لم اكن خيركم فأنا انفعكم لأنفسكم » وكان يقول للحسن ولغيره انه لو علم ان احدا اضبط لشئون الملك منه وأقدر على جمع الرعية حوله لما نازعه هذه الامانة الثقيلة على عاتقه

واذا كان الأمر أمر قدرة وعجز فلا جدال فى وصف معاوية بالقدرة ونفى العجز عنه لأنه من الصفات التى لا ترد على بال عارفيه أو خصومه

بيد ان القدرة — كما قلنا فى الصفحات الاولى من هذه الرسالة — هى احوج الصفات الى التقدير ، لأنها لا تعرف الا بمقدارها ولا تدل

على شيء ان لم تكن قدرة على هذا الشيء أو ذاك

وتقدير هذه القدرة التى امتاز بها رأس الدولة الأموية فيما نرى انها كانت الحزم غاية الحزم فى الشوط القصير ، ولكنها تخلو من الحزم أو تنحرف الى نقيضه فى الشوط الطويل والأمد البعيد

ان معاوية لم يضيع عملا حاضرا فى سبيل متعة حاضرة ، ولكنه أوشك ان يضيع الغد كله فى سبيل اليوم الذى يشهده او فى سبيل العمر الذى يحياه ..

ألجأته الحاجة الى انفاق المـال فى أبهة الملك والاغداق على الأعوان والخدام الى ارهاق الرعية بالضرائب ومخالفة العهود مع اصحاب الجزية فكان من الولاة من يطيعه ومنهم من يجيبه معترضا كما فعل وردان فى مصر حين أمره بذلك فأجابه سائلا : « كيف ازيد عليهم وفى عهدهم ألا يزاد عليهم ؟ »

***

ومن الولاة الذين انكروا ان تستصفى الأموال لبيت مال الخليفة والي خرسان الذى كتب اليه زياد يأمره ألا يقسم فى الناس ذهبا ولا فضة ، فكتب الوالى الى زياد : « بلغنى ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين وانى وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين . وانه والله لو ان السماء والأرض كانتا رتقا على عبد ثم اتقى الله جعل له مخرجا والسلام »

الا ان الولاة الذين اطاعوا وبالغوا فى الطاعة لكثر من الذين ذكروا بالمخالفة ، وكلما اشتدت الحاجة الى المال اشـتد الطلب على الرعية ، وعمد بيت المال الى احتجاز حصة الزكاة من الأعطية لحسبانها فى الهبات والهدايا ، وفتح هـذا الباب على مصراعيه فتوسع فيه كل خليفة بعد معاوية حتى جعلوا يحاسبون الناس على « التخمين » ويحصون عليهم ثمراتهم قبل ان تنبتها الأرض فيحسبوها عليهم بثمن دون ثمنها ويأخذوا منها ما يصل الى أيديهم بالثمن الذى اختاروه ، وتمادى هـذا العسف الى عهد عمر بن عبد العزيز الذى استنكره وكتب الى بعض ولاته يقول

ان عمالك يخرصون الثمار عن أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذين يتبايعون به فيأخذونها قرفا على قيمتهم التى قوموها » ... ولم ينته هذا العسف حتى كانت نهايتـه بداية للخراب وافلاس الدولة فى ختام عهدها فكان افلاسها هذا ـ على حين حاجتها الى مضاعفة المورد ـ سببا من أسباب التعجيل بزوالها

وكأنما كان غرام معاوية بأبهة الملك زهوا فى قرارة النفس لا يبالى ان يباهى به من صادفه ولو كان من الزهاد المنكرين للترف والسرف وخيلاء الثراء والفخر بالبناء والكساء ، فلما بنى قصر الخضراء بلغ من اعجابه بالبناء أن سأل أبا ذر داعية الزهد والكفاف من الرزق : كيف ترى هذا ؟

فسمع منه جوابا كان خليقا ان يترقبه لو لم يكن لزهوه بما ابتناه لا يصدق ان أحدا يراه بغير ما رآه . قال أبو ذر امام « الاشتراكيين » فى ذلك الزمان : « ان كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك فأنت من المسرفين .. »

***

واشأم من هذه السياسة المالية سياسة الامن او سياسة ضبط الأمور كما كان يسـميها ..

فليس اضل ضلالا ولا اجهل جهلا من المؤرخين الذين سموا سـنة « احدى واربعين هجرية » بعام الجماعة لأنها السنة التى استأثر فيهـا معاوية بالخلافة فلم يشاركه احد فيها ، لأن صدر الاسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت فى تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها

اذ كانت خطة معاوية فى الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة وهى التفرقة بين الجميع ، وسيان بعد ذلك سكنوا عن رضى منهم بالحال أو سكنوا عجزا منهم عن السخط والاعتراض ، وكان سكونهم سكون ايام او كان سكون الأعمار والأعوام

ولم يقصر هذه الخطة على ضرب خصومه بعضهم ببعض كما فعل فى

العراق حيث كان يضرب الشيعة بالخوارج ويضرب الخوارج بالشيعة ويفرق بين العشائر العربية بمداولة التقريب والاقصاء لعشيرة منهم بعد عشيرة . بل كان يفعل ذلك فى صميم البيت الأموى من غير السفيانيين ، فكان يأمر سعيد بن العاص بهدم بيت مروان كما تقدم ، ثم يأمر مروان بهدم بيت سعيد ، ويغرى أبناء عثمان بالمروانيين كما يغرى المروانيين بأبناء عثمان ..

وفرق بين اليمانية والقيسية ، أو بين جنوب الجزيرة وشمالها ، فأعطى حسان بن مالك سيد القحطانيين حكمه فى صدارة المجالس لليمانية ومضاعفة الأجر لهم أو للألفين الذين اصطفاهم من حزبه ورهطه ، وجعل لكل هؤلاء الالفين حق التوريث من بعده لأقرب الناس اليه فى رواتبه وأرزاقه ووجاهته وقيادته ، واشترط رؤساء اليمانية عليه ألا يعقد فى أمر أو يحله الا بعد مشورة منهم يقدمهم فيها على ولاته ووزرائه

***

وفرق كذلك بين العرب والموالى وأوشك ان ينكل بالموالى ليقصيهم عن مناصب الدولة وعن الاقامة فى عواصمها ، لأنه كان يعلم ان العرب يلوذون برؤسائهم ولا رؤساء للموالى يلوذون بهم فى نقمة أو مظلمة . وانفتح للموالى بذلك باب اللياذ بأصحاب المذاهب والدعوات لأنهم رؤوسهم دون الرؤوس وقادتهم دون القادة ، فلم يكد داعية من الدعاة يجهر بمذهب معقول أو غير معقول الا الفى الى جانبه جموعا من الموالى تصغى اليه ، ووافق ذلك ان الخوارج من صميم العرب كانوا يدعون الى مذهب فى الخلافة يوافق الموالى فى كل أمة ، لأنه مذهب لا يحصر الخلافة فى النسب ولا فى قريش ولا يرى لها شرطا غير التقوى والصلاح ، فتفرق الموالى بين الخوارج والشيعة ، ونصروا هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى لأنهم جميعا يحاربون بنى أمية

واتبع هذه الخطة ـــ خطة التفرقة ـــ بين أهل الشام الذين تمهدت له ولايتهم من قبل الاسلام ، فاستخلص لنفسه فرقة منهم لا تخرج من الشام

ولا تلتقى بأحد من دعاة العراق أو الحجاز أو مصر أو افريقية ، ثم نقل الى الشام طوائف شتى من غير أهلها ، فنقل اليها طوائف الزط والسيابجة من البصرة ، ونقل الى الأردن وصور طوائف من الفرس والموالى ، ونقل الى انطاكية اسـاورة الموانىء بالعراق ، وخلط العرب بالعجم وهؤلاء بسلالة الشاميين فى كل بقعة من بقاع البلاد التى عرفت من قديم باسم البلاد السورية ..

ولم يستطع ان يستخلص قبيلة بنى كلب كلها لأن منهم اصهار عثمان وبيت مروان ، فاستخلص منهم أخوال يزيد وأصبحوا بعد ذلك فريقين : فريق يدعو الى خالد بن يزيد ، وفريق يدعو الى مروان

***

وواضح من هذه التفرقة انه كان يكف يده عن البطش والنكاية فى معاملتهم جميعا على اختلاف النسب والمقام ، لأنه كان يغرى بعضهم ببعض فيستغنى بالوقيعة بينهم عن الايقاع بهم ، ولكنه على هذا كان يؤيد سياسة الايقاع مهما يكن من قسوتها وغلظتها كما أيدها أقسى الولاة وأغلظهم فى زمانه وبعد زمانه ، وكان يختار لها من يعلم انه يفرط فيها ولا يقتصد فى شرورها وموبقاتها ، ولا يبالى أن يأخذ البرىء بذنب الأثيم ولا ان ينكل بالقريب قصاصا من البعيد ، وكذلك فعل واليه زياد فى البصرة حيث اعلن « شريعة » حكمه فقال فى خطبته التى افتتح بها حكمه : « .. انى لأقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول : انج سعيد فقد هلك سعد .. اياى ودلج الليل فانى لا اوتى بمدلج الا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم ، واياى ودعوى الجاهلية . فانى لا اجد احدا ادعى بها الا قطعت لسانه . وقد احدثتم احداثا لم تكن واحدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن غرق قوما غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتا نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم

اكفف عنكم لسانى ويدى ، واياى لا يظهر لأحد منكم خلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه ..

«وقد كانت بينى وبين أقوام احن فجعلت ذلك دبر اذنى وتحت قدمى . فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ومن كان مسيئا فلينزع عن اساءته . انى لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضى لم اكشف له قناعا ولم اهتك له سترا حتى يبدى لى صفحته فاذا فعل لم اناظره »

الى ان قال واعدا بعد هذا الوعيد : «واعلموا اننى مهما قصرت عنه فلست بمقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو اتانى طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء ، ولا مجمرا لكم بعثا . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الدى يه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم »

ثم عاد الى النذير والوعيد فاختتم خطابه قائلا : « .. ان لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاى »

***

وقد أمر صاحب شرطته ان يخرج بعد صلاة العشاء وانقضاء هزيع من الليل ، ثم لايرى انسانا الا قتله ، وجيء اليه يوما باعرابى لم يقتله صاحب الشرطة لاشتباه أمره عليه ، فسأله زياد : أما سمعت النداء ؟.. قال الاعرابى : لا والله قدمت بحلوبة لى وغشينى الليل واقمت لأصبح ولا علم لى بما كان من الأمير

قال : اظنك والله صادقا . ولكن فى قتلك صلاح الأمة ، وأمر به فضربت عنقه ..

ومثل هذا الحكم لا يغتفر ولو كان من معاذيره « ضبط » الأمور وتأمين الناس ، لأنه يؤمنهم بخوف أشد عليهم من خوف العدوان ، ولكنه على هذا لم يصلح للضبط والتأمين الا فترة لم تطل ولا يزال سواء منها على الأمة ان تنقضى فى عدوان أهل البغى او فى نكال السلطان

بمثل هذا النكال ، ثم انقضت هذه الفترة فنجمت نواجم الشر ولم تنشب فى تلك الانحاء ناشبة من الفتنة الا كان لها جرثومة من تلك السياسة التى تفسد الأمور فى زمانها وفيما بعد زمانها

وكان الناس من حين الى حين يهربون من هذه الشدة ويتحرمون بجوار العاصمة فيجيرهم معاوية ولا يكف يد واليه عن غيرهم ، وكتب اليه زياد مرة : ان هذا فساد لعملى كلما طلبت رجلا لجأ اليك وتحرم بك

فكتب اليه معاوية : « انه لا ينبغى ان نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون انت للشدة والغلظة واكون انا للرأفة والرحمة فيستريح الناس بيننا .. »

على ان زيادا تحرج أشد الحرج فى قضية حجر بن عدى وأرسله الى معاوية فلم يتحرج معاوية من قتله ، ولم يذكر الناس لزياد من جرائر قسوته فى حكمه ما ذكروه من جرائر هذه السقطة لمعاوية ..

وساءت العقبى من سياسة التفرقة كما ساءت العقبى من سياسة القسوة ، فلم تنجم فى الدولة ناجمة فتنة الا كانت جرثومتها فى هذه السياسة ، وكان حزم معاوية وكانت قدرته فى كل هذه الفتن حزما لابد له من تعقيب وكانت قدرته فى أعماله جميعا قدرة لابد لها من تقدير

وجماع الصدق فى هذا التقدير انها كانت قدرة على الشوط القصير والأمد القريب ، ولم تكن قط قدرة على الشوط الطويل والأمد البعيد

واستقر الملك لمعاوية على قلق دخيل الى ان أدركته الوفاة سنة ستين للهجرة ، وبطل نصفه قبل وفاته كأنه ضرب من الشلل ، وأصابته لوقة وسقطت أسنانه جميعا ، كأنها من أدواء التخمة التى تعجل الى الكبد والأسنان ، ويبدو أثرها فى مرض الجلد واللثة ، وكان يخلط فى وفاته أحيانا ولكنه كان يصحو ساعة بعد ساعة حاضر الذهن صحيح اللسان ، فدعا بصاحب شرطته الضحاك بن قيس الفهرى وبمسلم بن عقبة صاحب الأفاعيل المشهورة فى حرب أهل المدينة ، وقال لهما فى أشهر الأسانيد « بلغا يزيد وصيتى : انظر اهل الحجاز فانهم أهلك فأكرم من قدم عليك

منهم وتعاهد من غاب عنك ، وانظر أهل العراق فان سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل أحب الى من أن يشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا لسانك وعيبتك ، فان نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ، وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر »

ويقال انه ألقى هذه الوصية الى يزيد فقال : « يابنى .. انى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الاشياء وذللت لك الأعداء وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وانى لا اتخوف ان ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا اربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة فاذا لم يبق احد غيره بايعك ، وأما الحسين بن على فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه . فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فان له رحما ماسة وحقا عظيما . واما ابن ابى بكر فرجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم . ليس همه الا فى النساء واللهو ، واما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا امكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير »

وشبيه ان تكون هذه الوصية فى معناها آخر ما قاله وخلاصة ما خرج به من تجارب دنياه ، فانها سياسته التى كان يعيدها كما بدأها لو انه عاد ليبتدىء بها من جديد فى أيام يزيد ، معرفة بالرجـال وقدرة على التدبير فى الشوط القصير ، واحكام العقدة بآلتها فى حينها ، وبغير نظر الى آلتها بعد ذلك الحين ، ومن ذلك اختياره لابلاغ الوصية أسوأ من يعين عليها مع الزمن : مسلم بن عقبة والضحاك بن قيس .. ومن ذاك مدافعته الفتن بالمجاراة والمداراة ، فيوصى خليفته بعزل وال فى كل يوم ولا يوصيه بالنظر فيما وراء ذلك من سخط على الحاكم وعجز عن ارضاء المحكوم .. وصية رجل قدير .. قدير غاية القدرة فى الشوط القصير ..

في الميزان

حق الأمانة على المؤرخ فى هذه المرحلة من التاريخ الاسلامى ان يراجع بينه وبين ضميره طائفة من الحقائق البديهية ، قبل ان يستقيم له الميزان الصادق لتقدير الرجال بأقدارهم وتقويم المناقب والمآثر بقيمتها

ومن هذه الحقائق البديهية ان الأموال التى بذلها معاوية للمأجورين من حوله لم تبذل لتعريف الناس بحسناته وسيئـاته كما يعرفها من لم يؤجر بمال ولم يتصل معه بسبب

ومن هذه الحقائق البديهية ان سلطان معاوية يدخل فى الحساب حيث يؤوب الباحث الى ذلك الزمن ليفرق بين ما يقال عن صاحب السلطان وما يقال عن رجل يحاربه السلطان فى سمعته وذكراه

ومن الحقائق البديهية تواطؤ الزمن على اقرار ما قيل وتكرر وطال وقوعه فى الأسماع حتى لتكاد تنفر من تغييره لو عرض لها فيه شىء من التغيير ، وحتى لتكاد تعجز عن النفاذ الى الحقيقة لو رغبت فى ذلك التغيير لسبب من الأسباب ، وقلما تعرض هذه الأسباب لمن لا يعنيهم تمحيص ما يقال فى الساعة الراهنة فضلا عما يقال ويعاد منه مئات السنين

ومن الحقائق البديهية ان المحاباة تأتى بتوافق الطبائع كما تأتى بالغرض والرشوة ، فلا يسهل على الانسان نقد صفة يعلم انه متصف بمثلها ، واستنكار وسيلة يعلم انه لا يستنكرها ولا يأبى النجاح اذا توسل بها اليه

ومن الحقائق البديهية ان المحاباة تأتى من جهات لم تخطر للمنتفع بمحاباتها على بال ..

فالدولة الأموية فى الاندلس أنشأت للشرق الاسلامى تاريخا لم يكتبه مؤرخوه ولا يكتبونه على هذا النحو لو انهم كتبوه ، وجاءت تلك الدولة الاندلسية بمؤرخين من الأعلام ينصبون الميزان راجحا لكل سيرة أموية

لا يقصدونها بالمحاباة ولكنهم لايستطيعون ان يقصدوها بالنقد والملامة لأنهم مصروفون بهواهم عن هذا الطريق

من هؤلاء اناس فى طبقة ابن خلدون ، يضع معاوية فى ميزانه فيكاد يحسبه بقية الخلفاء الراشدين ويتمحل المعاذير له فى اسناد ولاية العهد اليه مع فسوقه وخلل سياسته وكراهة الناس لحكمه حتى من أبناء قومه

ولا يهولن قارىء التاريخ اسم ابن خلدون فيذكره وينسى الحقائق البديهية التى لا تكلفه اكثر من نظرة مستقيمة الى الواقع الميسر لكل ناظر فى تواريخ الخلفاء الراشدين وتاريخ معاوية

فما فى وسع ابن خلدون ان يخرج من هذه التواريخ بمشابهة بعيدة تجمع بين معاوية والصديق والفاروق وعثمان وعلى فى مسلك من مسالك الدين أو الدنيا وفى حالة من أحوال الحكم أو المعيشة ، وانه لفى وسع كل قارىء ان يجد المشابهات الكثيرة التى تجمع بين معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان وهشام ، فلا يفترقون فيها الا بالدرجة والمقدار ، أو بالتقديم والتأخير . واذا كان هذا شأن ابن خلدون ، فقل ماشئت فى سائر المؤرخين وسائر المستمعين للتواريخ ، من مشارقة شهدوا زمان الدولة ومشارقة لم يشهدوه ، ومن مغاربة عاشوا فى ظل تلك الدولة ، وتعلقت أقدارهم بأقدارها ، وأيقنوا انهم لا ينقصون منها شيئا ثم يستطيعون تعويضه من الأندلس بما يغنيهم عنه ، وما زال العهد بالمنبت عن ارومته أن يلصق بها أشد من لصوق القائمين عليها

اذا روجعت تلك الحقائق فى ميزان التاريخ فقد ذهب من الكفة كل ما زيد عليها فى ابان الدولة وكل ما علق بها من تواطؤ الزمن وتكرار العادة وكسل السامع من مشقة المراجعة وانتزاع الفكر مما ألفه ولم يألف سواه .. لقد تمهدت لمعاوية أسباب لم تتمهد فى عصره لأحد غيره من قبل الاسلام ، وفى صدر الاسلام الى أيام عثمان

ولم يكن مفرطا أو عاجزاً فلم يضيع ما تمهد له بعجلة لا تؤمن عاقبتها ، أو بتقصير عن الفرصة فى أوانها ، وكان له دهاء وحلم ، وكان فيه طموح

واعتداد بالنفس وسمة من سمات الرئاسة ..

وكان له من كل اولئك قدره الذى أعانه على مقصده كما أعين بغيره فكان فى يديه من المال والجند وسلطان الولاية ما لم يكن فى يدى أحد من نظرائه ومنازعيه ، ولولا ذلك لما أفاده دهاؤه مع اعوانه من الدهاة ، لأنه لم يغلبهم بعقل غالب ولم يصرفهم عن مقصدهم الى مقصده ، بل خدمهم وخدموه ، ولو لم يكن عنده ما يطلبونه لخدموا غيره أو نازعوه على سواء ، وربما نازعه بعضهم على رجحان

وكان له حلم أوشك أن يحرمه عزة الرئاسة ، ولكنه حلم من لا يغضب وليس بحلم من يغضب ويملك عنان غضبه ، فسيان ان يركب غضبه بعنان او بغير عنان ، فانه فى غنى عن قوة الساعد مع مطية لا تثور ثورة الجماح فى كل حين

وكان له طموح الى السيادة ، ولكنه طموح الألفة والعادة ، ورثه مع جاه الأسرة ولم يخلق فيه بتلك الخليقة « الحيوية » التى يطبع عليها العصاميون ، فكأنما هى جزء من التركيب وليست وجاهة من وجاهات البيت العريق يطلبها كما يطلب الميراث

واذا وزنت قدرة معاوية بميزان النجاح حصل من نجاحه فى كفة الميزان حاصل قليل يهون شأنه مع اثقال الكفة الأخرى من الجهود والشواغل والهموم ..

فقد أراد الملك له ولبنيه ، ولم يرده لبنى أمية أجمعين ، لأنه فرق بينهم ما اجتمع وأغرى اناسا منهم باناس ولم يعمل عمله الا ليتركه من بعده لعشيرته من بنى سفيان . فلم يخلفه من ذريته غير يزيد ، وذهب يزيد فى عنفوانه بداء الجنب فلم يخلفه أحد من ولديه

وتبعة معاوية فى عاقبة ولى عهده الذى خرق الخوارق من أجله اعظم جدا من مسعاته فى توريثه الملك وتوريث أبنائه من بعده . فقد جنت عليه تلك الخليقة الأموية فلم يعرف من البر بالأبناء غير الاملاء لهم فى النعمة والمتاع ، وما كان يزيد ليقصد فى مطاعمه ومناعمه وهو ينظر الى

قدوة سبقته الى تلك المطاعم والمناعم ، وسبقته الى تدبيرها له كلما استعصت عليه ، ولو لم تكن من الشهوات التى يقضيها الآباء للأبناء

ان ذات الجنب مرض من أمراض الكبد ، وأمراض الكبد قضاء حتم على المنهوم بطعامه والمفرط فى شهواته ، وقد صنع معاوية ليزيد هذا وصنع له ذاك : صنع له عدة النعمة والمتعة ووضع له عدة الملك والسلطان ، وما يحسب له من هذا دون ما يحسب من ذاك ..

وخرج معاوية من الملك بالأيام التى قضاها فى نعمته وثرائه ، ولا نقول فى صولته وعزه ، فقد كاد يذل لكل ذى بيعة منشودة ذلا لم يصبر من بايعوه على مثله ، ولو وزن ما احتمله فى سبيل بيعتهم وما احتملوه فى سبيل طاعته لكان ما احتمله هو أثقل الكفتين . أما تبعته العامة فى أمر الملك فأمر جسيم لا تعدله جسامة عمل فى عصره ، لأنه نكص بالملك خطوات ، وكان فى ميسوره أن يتقدم به خطوات تزيد عليها ، مع ما بين الخطوة الناكصة والخطوة المتقدمة من بون بعيد ..

لم يكن فى ميسوره ان يديم على الدولة خلافة كخلافة الصديق أو الفاروق ، ولكن كان فى ميسوره أن يجنبها الكسروية والهرقلية وأن يجعل للخلافة أثرا باقيا فى ولاية الأمر ، ان لم يصمد على سنة الراشدين لم يصمد على سنة الملك العقيم . ولو انه أنشأ هذا الملك فى الدولة الاسلامية والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبه من اللوم وهان حق التاريخ وحق العالم الاسلامى ، والعالم الانسانى ، عليه ..

غير ان الناس عرفوا فى زمانه فارقا شاسعا بين ولى الأمر الذى يتخذ الحكم خدمة للرعية وامانة للخلق والخالق ، وشريعة لمرضاة الناس بالحق والانصاف ، وبين الحكم الذى يحاط بالأبهة ويجرى على سنة المساومة ويملى لصاحبه فى البذخ والمتعة ويجعله قدوة لمن يقتدون به فى السرف والمغالاة بصغائر الحياة . كان الرجل من النصحاء يدخل عليه كأنما يبكته فيسلم عليه بالملك ولا يسلم عليه بالخلافة ..

وتتابع عليه فى أيامه الأولى من يقول له : السلام عليكم أيها الملك ..

فكان ينكر الاسم ولا ينكر السمة ، الى أن تنازعه الخيار بين ترك السمة أو التمادى فيها ، فتمادى فيها وقال جهرة لمن حوله : نعم أنا أول الملوك !

وتبعته فيما شجر بعده من خلاف توازن تبعته فى هذا الخروج بولاية الأمر من ورع الخلافة الى أبهة الهرقلية والكسروية

فما كان من المعقول ، ولا من طبائع الأمور ، ان تبذر فى الأرض كل تلك البذور من جراثيم التفرقة ثم تسلم الدولة من عقابيلها أو تظل التفرقة سندا لصاحب الأمر مئات السنين كماكانت لمعاوية سنوات معدودات

تبعات يحسب حسابها العسير ان كان للتاريخ جدوى يحرص عليها ، وكان لشرف الذكر وزن يقام

وليست جدوى التاريخ هنا كلمة مدح تنقص أو تزاد ، وانما جدواه ان يصان الذكر عن الابتذال وهو أشرف ما تملكه الانسانية من تشريف ابنائها فى الحياة وبعد الممات ، فلا يباح عرض الانسانية لكل من يملك طعاما يملأ به البطون أو مالا يملأ به الجيوب ، ولا يختلط الحق بالباطل ثم تذهب الحيلة فيه وتثوب العقول والضمائر الى التسليم ، ويتساوى الجوهر والطلاء فى ميزان الخلود والبقاء . ومعاوية فى هذا الميزان ، لا يخرج منه مغبونا ولا غابنا للحقيقة من بعده ، وانما تحسب له قدرته بتقدير ، ويعطى من أثر قدرته ، ومن أثر نيته ، ما هو به حقيق

وقد عمل بتلك القدرة ما افاده وافاد قومه وافاد الأمم التى تولاها فيما تستفيده من قرار الدولة و « ضبط » الأمور . وذلك حق القدرة الذى لا حاجة معه الى اللجاجة فى أمر النية ، فلو ان أحدا أراد أن يمحو من سجله كل ما عمله لنفسه ولبنيه لما بقى فى ذلك السجل عمل واحد تطول فيه اللجاجة حول النيات .. ونعود فنقول انها قدرة لا ترسل على اطلاقها بغير تقدير، وان تقديرها الحق انها غاية القدرة الى الشوط القصير

لقد كان قويا لا مشاحة فى وصفه بالقوة على مثالها ، ومثالها انك تصوغها فى خيالك على صورة من الصور ، فتحضرك صورة الجمل الصبور ولا تحضرك صورة الأسد الهصور

فهرس

معاوية بن أبي سفيان

تمّ طبع هذا المجلد على مطابع
دار الكتـــاب اللبـــناني
برقياً : كتـــاليـــان
ص.ب. ٣١٧٦ - تلفون ٣٣٧٩٨٣ - ٢٨٣١٢٨
بيروت - لبـــنان


Maged

